المسلمون والعولمة

تأليف
الأستاذ؛ محمد قطب

قال عليه الصلاة و السلام: "يوشك أن تــداعى عليكم الأمم كما تــداعى الأكلة على قصــعتها . قــالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رســول الله؟ قـال: "إنكم يومئذ كثـير، ولكنكم غثـاء كغثـاء السـيل. ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن". قــالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".
رواه أحمد والترمذي.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يشكو المسلمون اليوم من العولمة ونذرها الخطيرة التي تتهددهم، وحق لهم أن يشكوا، فهم في مقدمة المقصودين بها، سواء كان عنوانهم " العالم الإسلامي " أو " العالم الثالث " أو " الدول النامية " أو " الدول المتخلفة " أو " الدول الفقيرة "!

ولكنهم - في شكواهم وتخوفهم - قلما يتبادر إلى أذهانهم أنهم - بسبب تقاعسهم، وتفلتهم من تكاليف دينهم، وانحرافهم عنه خلال القرون الأخيرة - هم السبب الأول فيما يلقون اليوم من هوان وعسف، وأنهم هم - بسبب تفلتهم هذا - هم الذين أتاحوا لقوة جاهلية بربرية أن تفرض نفوذها على العالم، وتكتسحهم هم من الطريق!

وفي هذه الصفحات القليلة أحاول أن ألقي الضوء سريعا على بعض النقاط حول العولمة وموقف المسلمين منها، مبتدئا بالحديث عن أبعاد العولمة ثم عن مسئولية الأمة المسلمة عن بروزها وتمكنها ثم عن موقف المسلمين منها في الحاضر والمستقبل.

ولا يفوتني كذلك أن أشير إلى موقف " العلمانيين " من العولمة، وترحيبهم بها واستبشارهم بها على أنها الأداة الكاسحة (البلدوزر) التي ستقتلع لهم الإسلام من جذوره، بعد أن تعبوا هم - بفؤوسهم ومعاولهم - في محاولة هدمه واقتلاع جذوره، وباءوا من محاولتهم بالفشل والخذلان.

وفي الأخير نلقي نظرة سريعة على المستقبل المنظور: مستقبل العولمة، ومستقبل الإسلام.

وإن تكن هذه الصفحات القليلة لا تفي بحق موضوع ضخم كهذا، فإنما هي مجرد تذكرة، عملا بقوله تعالى: **(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)** [1] وعلى الله قصد السبيل ومنه العون، وعليه التوكل، ومنه التوفيق..

محمد قطب

---

1 (1) سورة الذاريات (55)

أبعاد العولمة

يتســاءل كثــير من النــاس: ما المقصــود بالعولمة على وجه التحديد؟

وبعيدا عن التعريفات النظرية نضرب مثلا من الواقع يبين الأبعاد الواقعية للعولمة.

منذ فترة ليست بعيدة عمدت الدول المنتجة للبترول إلى خفض الإنتاج بغية رفع أسعاره في السوق، بعد أن كانت قد انخفضت إلى الحضــيض نتيجة الزيــادة في الإنتــاج. وبالفعل ارتفعت الأســعار، وقاربت القمة التي كانت قد وصلت إليها في سنوات "الطفرة".

وهنا تدخلت القوى " العظمى ".. أو بالأحرى " القوة العظمى " لتفــرض على الــدول المنتجة أن تضخ في الســوق كميــات أكــبر، لينخفض السعر إلى المستوى الذي يناسب مصالح القوى العظمى، أو بالأحرى يناسب جشعهم ومطامعهم.

وفي النهاية لم تجد الــدول المنتجة بــدا من الخضــوع للضــغط الواقع عليهــا، وتحت طائلة التهديد بالعقوبــات اضــطرت إلى رفع إنتاجها بالقدر الذي طلب منها أو قريبا منه!

ذلك مثال واقعي للوجه الاقتصادي للعولمة، لا يحتاج إلى جهد في استخلاص أبعاده ووسائله. فالعالم الثالث - الذي ينتج معظم البــترول المســتخدم الآن في الصــناعة العالميــة، والــذي يمثل المسلمون الجانب الأكبر منه - يملك " خامات " كثيرة، تحتاج إليها الدول الصناعية، ولكنه لا يملك المصانع، ولا يملك الخبرة والتقنية التي يدير بها تلك المصانع إن وجدت. والذي يملك الخبرة والتقنية هو الغرب - وعلى رأسه أمريكا - ومن ثم فإن هذا الغرب يفرض على العالم الثالث - الفقير الجاهل المستضعف - أن يبيع له ما يملك من الخامات بأبخس الأثمان، ثم يصنّعها عنده، ثم يعيدها مصنعة فيبيعها للعالم الثالث بأغلى الأثمان، فيربح أرباحا كثيرة في وقت واحد: مادية ومعنوية. المادية ببخس سعر الشراء ورفع سعر البيع، والمعنوية بــإذلال العــالم الثــالث وإشــعاره دائما بالتبعية والضــآلة والعجز.

هذا الوجه من وجوه العولمة أوضح من أن يحتاج إلى بيان!

ولكن له وسائل قد تحتاج إلى شيء من البيان.

فالخصخصة التي فرضت على دول العالم الثالث ذات أبعاد.

فمن أبعادها رفع ســـلطة الدولة عن ممتلكاتها " القومية "، فلا تعود تملك لها منعاً ولا منحاً ولا حماية ولا اسـتغلالاً يعـود عليها وعلى شعوبها بالخير، وإنما تملّك في الخطوة الأولى للقطاع الخاص، بحجة أنه هو الأقدر على إدارتها واستغلالها، أو بأية حجة من الحجج التي قد تكون صحيحة في ذاتها، ولكنها لا تخفي السبب الحقيقي!

وفي الخطـوة التالية تعـرض المجـالات المخصخصة للاسـتثمار العالمي، فتأتي رؤوس الأمـوال العالمية " فتشـارك! " في عمليـات الاســتثمار، مشـــترطة شـــروطا معينة في صـــالحها، منها تخفيض الضرائب عليها، والسـماح لها بنقل أرباحها إلى الخـارج، وعـدم وضع العراقيل أمامها بعمل حماية جمركية أو حماية من أي نوع للصناعات المحلية الصغيرة الـتي يـديرها رأس المـال المحلي بجهـده الخـاص، فتعجز هذه - بدون حماية - عن المنافسة في الأسـواق العالميـة، بل في الأسواق المحلية ذاتهـا، فينتهي بها الأمر إلى " المشـاركة! " مع رأس المال الأجنبي.. أو إلى الفناء!

العولمة إذن في وجهها الاقتصادي - بالنسبة للعالم الثـالث على الأقل - هي السيطرة الكاسحة لرأس المال الغربي على اقتصاديات العـالم الثـالث، ووضـعه بين فكّي الكماشـة، سـواء بخفض أسـعار الخامات، أو رفع أسعار الإنتاج، مع تخـدير الـدول وشـعوبها بتمـنيتهم بالرواج الاقتصادي الذي سـيحدث في العـالم الثـالث نتيجة العولمـة، والذي سيعين الدول على تسـديد ديونهـا، ويوجد فـرص عمل جديـدة أمـام المتعطلين من أبنائها الـذين لا يجـدون فرصا للعمل في الأزمة الراهنـــة. وهو حق على المـــدى القـــريب، ولكنه ينتهي بتنحية هـــذه الشـعوب عن مقومـات وجودهـا، وسـيطرة الغـرب عليهـا، والتحكم الكامل في مصائرها.

والآن يبرز سؤال له أهمية بالغة..

من المالك الأكبر لرأس المال الأجنبي الذي يأتي للاسـتثمار بعد أن تفتّح له الأبواب؟!

إنه - شئنا أم أبينا - رأس المال اليهودي العالمي، الذي يســيطر في بلاده الأصلية، ويسعى لبسط سيطرته على العالم كله!

وهنا يـــبرز وجه جديد من وجـــوه العولمـــة، لا يقل أثـــرا عن السيطرة الاقتصادية، بل هو في نظرنا أخطر وأشد!

إن المخطط اليهودي للأمميين (وهم كل الأمم من غـير اليهـود) كما هو وارد عنـدهم في التلمـود، هو أن الأممـيين هم الحمـير الـذين خلقهم الله لـــيركبهم شـــعب الله المختـــار، وأن من فضل الله على الشــعب المختــار أن خلق هــذه الحمــير على صــورة آدمية ليتمكن الشعب المختار من استخدامها!!

ويترتب على هذه النظرة أمور كثيرة.. وخطيرة.

فمتى يستحمر الإنسان.. وكيف يستحمر؟!

إن الله يقـــول في محكم التنزيـــل: (**وَلَقَــدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَــاهُمْ فِي الْبَــرِّ وَالْبَحْــرِ وَرَزَقْنَــاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَــاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**) [1].

فالأصل في الإنسان هو الكرامة والتكريم..

ولكنه - في حــالات - يهبط أســفل ســافلين: (**لَهُمْ قُلُــوبٌ لا يَفْقَهُـــــونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِـــــرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْـــمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَــامِ بَــلْ هُمْ أَضَــلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**) [2].

(**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**) [3].

ذلك حين يعرضون عن عبادة الله، ويعبدون غيره..

ومعنى ذلك بعبـارة أخـرى أن الإنسـان لا يسـتحمر وهو صـاحب عقيدة، وصاحب أخلاق إيمانية نابعة من العقيدة..

فـإذا كـان هـدفنا اسـتحمار البشر - لغاية في نفوسـنا - فمـاذا نفعل؟

الإجابة واضحة: نفسد عقائدهم، ونفسد أخلاقهم!

وهــذا ما تقــوم به المــؤتمرات الدولية الــتي تقــام بين الحين والحين، لإعطــاء الشــرعية للفوضى الخلقية والشــذوذ الجنســي، وحرية الإجهاض، وتكوين " أسرة!! " من غـير زوج وزوجــة، ورفع يد الآباء عن التدخل في سلوكيات الأبنـاء، وحرية الاعتقـاد الـتي تعـني - فيما تعني - حرية الإلحاد!

إن هذه المؤتمرات لا تقام عبثا! إنها - بكل بشـاعتها المقـززة - جــزء مــدروس بعناية من المخطط الكبـير الشــرير الــذي يقــوم به

---

[1] سورة الإسراء (70)

[2] سورة الأعراف (179)

[3] سورة المدثر (50 - 51)

المفسـدون في الأرض: (**وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَـاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**) [4].

وهي ليست شيئا قائما بذاته، وإن وضعت لها عناوين متخصصة، كمؤتمر " الإسكان " أو مؤتمر " المرأة عام 2000 " أو غيرهـا، إنما هي أجزاء مترابطة متماسكة - وإن اختلفت اتجاهاتها - تتحرك بإرادة موحدة، كما تتحـرك أذرع الأخطبـوط في اتجاهـات مختلفـة، فتنهش من هنا وتنهش من هنـاك، ولكن بـإرادة مركزية واحـدة، مركـزة في رأس الأخطبوط!

واتخاذها شكل " مؤتمرات دولية " ومحاولة فرضها على الناس فرضا عن طريق هيئة الأمم، وتهديد المخالفين - وخاصة المسلمين - بتوقيع العقوبات عليهم إن لم ينفذوا قراراتها، كل ذلك له دلالات..

الدلالة الأولى أنه قد أمكن بالفعل اسـتحمار عـدد من البشـر، ينطقون بما يريد الشيطان منهم أن ينطقـوا بـه، في جـرأة ووقاحـة، فيطالبون علانية بعصيان الله والتمرد على أوامـره، وتحليل ما حـرّم، وتحريم ما أحـلّ، والتشـريع بغـير ما أنـزل، ويقيمـون من أجل ذلك " المـؤتمرات " يتعـالنون فيها بكل قـبيح، ولا يتحرجـون من ذلك ولا يتأثمون. وهو درك من الهبوط لم تهبط إليه البشرية قط في تاريخها كله. فكل ما ينادون به من القبائح قد حدث من قبل في تـاريخ الأمم، ولكن لم تكن له شرعية، إنما كان يرتكب خفية أو شبه خفيـة، ثم إنه لم يكن واسع الانتشار، لأن النفس البشرية - التي كرمها الله - كانت تستبشع - حـتى في انحرافاتها - أن تمـارس الانحطـاط الحيـواني باسمه الصريح! والحالات الشاذة كحالة قـوم لـوط تعتـبر - بالنسـبة لمجموع البشرية - حالة فردية شـاذة، ملعونة في الأرض والسـماء.. أما اليوم فيراد إعطاء هـذا الهبـوط شـرعية يتعـالن بهـا، وتصـبح هي الأصل الشائع بين الناس!

والدلالة الثانية أن المفسدين لا يكتفون بما أفسدوا بالفعـل، ولا يقنعون بما بين أيـديهم من الحمر المسـتنفرة، إنما يريـدون المزيـد! يريدون أن يستحمروا البشـرية جمعـاء، ويسـتخدمون ما بين أيـديهم من الأدوات " الدولية! " لنشر الاستحمار في البشرية!

والدلالة الخاصـة، الـتي لا ينبغي أن تفوتنا نحن المسـلمين، أن الإسـلام بالـذات هو المسـتهدف الأول، وأن " أصـحاب الشـأن " لن

---

[4] سورة المائدة (64)

يستريحوا حتى يردوا المسلمين عن دينهم.. إن استطاعوا: (**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**) [1].

* * *

العولمة إذن ليست وجها واحدا كما قد تبدو لأول وهلة.. إنما هي - كما رأينا - أخطبوطية تشمل الاقتصاد، والسياسة، والفكر، والدين، والأخلاق، والثقافة، والتقاليد، والعادات.

وحتى لو فرضنا جدلا - وهو غير صحيح - أن الهدف الأساسي هو السيطرة الاقتصادية، فإن هذه لا تتم بغير معاوناتها الأخرى! فالقوم الذين لهم دين يعتزون به، وأخلاق يعتزون بها، وثقافة متميزة، ومقومات ذاتية يحرصون عليها، لا ينصاعون بسهولة للسيطرة الاقتصادية ولو حاصرتهم من كل جانب، إنما اعتزازهم بقيمهم الخاصة سيجعلهم يقاومون، وسيجعلهم - ولو على المدى البعيد - يسعون إلى التحرر من العبودية المراد فرضها عليهم، وعندئذ يفشل التخطيط، ويفشل الأخطبوط! فلا بد إذن من أجل السيطرة الاقتصادية ذاتها من محو شخصية الأمم، وتذويب مقوماتها النفسية والفكرية والعقدية، ليسلس قيادها للمسيطر الشيطان!

[1] سورة البقرة (217)

مسئولية الأمة الإسلامية

أخرج الله هذه الأمة - أمة التوحيد - لتحقق أهدافا معينة:

لتكـون خـير أمة أخـرجت للنـاس،تـأمر بـالمعروف وتنهى عن المنكر وتـؤمن باللــه: **(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)[1].**

ولتكون رائدة ومرشـدة وشـاهدة على كل البشـرية: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَـاكُمْ أُمَّةً وَسَـطاً لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)[2].**

ولتحمل رسالة النبي الخاتم عليه الصلاة والسـلام إلى البشـرية كافة، على مـدى الـزمن كله من بعثته عليه الصـلاة والسـلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لتخـرج النـاس من الظلمـات إلى النـور على هدى الكتاب المنزل من عند اللــه: **(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـــرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَـــاتِ إِلَى النُّورِ بِـــإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ اللَّهِ الَّذِي لَـهُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [3].**

وكفل الله لهـــذه الأمة - حين تقـــوم برســـالتها: الاســـتخلاف والتمكين والتـــأمين: **(وَعَـــدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـــوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَـــى لَهُمْ وَلَيُبَـــدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [4].**

وتحقق ذلك كله في واقع الأرض عـدة قـرون، كـانت فيها الأمة الإسلامية خير أمة على وجه الأرض في كل اتجـاه: عقـديا، وأخلاقيـا، وفكريا، وعلميا، وسياسـيا، وحربيـا، واقتصـاديا، وحضـاريا.. وفي كل مجال من مجالات الحياة، في الوقت الذي كانت فيه أوربا غارقة في ظلمات ما يطلقون عليه هم: قرونهم الوسطى المظلمة..

تحقق للأمة السيادة والمنعة والقـوة. وتحقق لها لأول مـرة في التاريخ معنى " الأمة "، التي تجمع شعوبا مختلفـة، وأجناسا مختلفـة، ولغـات مختلفــة، يرتبطـون كلهم بربــاط واحد هو " الإســلام "، وإن

---

[1] سورة آل عمران (110)

[2] سورة البقرة (143)

[3] سورة إبراهيم (1،2)

[4] سورة النور (55)

تباعــدت المســافات بينهم، وإن اختلفت علاقــات الحكــام بعضــهم ببعض، فرباط " الإسلام " الذي يوحد قلوبهم ومشـاعرهم أقـوى في نفوسهم من كل ما يسبب الفرقة أو الخلاف. منه يتخذون عقيــدتهم، ومنه يستمدون أنماط حيـاتهم وأخلاقيـاتهم وسـلوكياتهم وتوجهـاتهم العامة، وإن كان لكل شعب خصوصياته، ولكل فرد خصوصياته.

وتحقق لها الرخاء الاقتصادي الناشئ من سـعي المسـلمين في فجاج الأرض، ينشرون فيها النور، ويكشـفون مجاهيلهـا، ويعمرونهـا، تحقيقا للتوجيه الربــاني: **(هُــوَ الَّذِي جَعَــلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُــولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)**[1]**. (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)** [2]**.**

وتحقق لها نشاط فكري وعقلي وعلمي غــير مســبوق، يزخر به إنتاج تلك القرون - قرون التمكين - في اتجاهـات متباينـة: في الفقه والأصول، في التاريخ، في الطب والفلك والرياضـيات، في الــرحلات والكشـوف الجغرافيــة، وفي كل منحى من منـاحي الحيـاة المـوّارة الدفاقـة، التواقة إلى المعرفـة، التواقة إلى تحقيق الخلافة الراشـدة في الأرض: **(وَإِذْ قَــالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَــةِ إِنِّي جَاعِــلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** [3]**.**

وتحقق لها وجـود حضـاري واسـع، لا ينحصر في الإنتـاج المـادي والحضـارة الماديــة، من إنشـاء مـدن وعمـارة مبـان وتوفـير طـرق، وفنــون إدارة، إنما يحقق المعـنى الجــوهري للحضـارة أي الارتقـاء " بالإنســان " ليكــون جــديرا بــالتكريم الربــاني: الارتقــاء به عقيــدة، وأخلاقــا، وســلوكا، وفكــرا، ومعرفــة، ينبع منها النشــاط المــادي، ولا تنحصر فيه.

كانت هذه الأمة أول أمة عرفت مجانية التعليم، ومجانية العلاج، وأوقفت على هذين الأمرين أوقافا طائلة لا تعتمد على ســخاء الدولة أو تقتيرها، أو عنايتها أو إهمالها، بقـدر ما تعتمد على دوافع الخـير في النفوس، ودوافع البذل والعطاء.

وكانت أول أمة عرفت إنشاء بيوت لرعاية العجـزة، ودور لإيـواء الحيوانات الضالة لرعايتها وإطعامها!

---

[1] سورة الملك (15)

[2] سورة هود (61)

[3] سورة البقرة (30)

وكـــانت أول أمة - أو الأمة الوحيـــدة - الـــتي تفي بعهودها مع الآخرين، وتلـتزم بـالمواثيق، ولا تبرمها في وقت الحاجة لتمزقها في أول فرصة مواتية!

وكانت أول أمة - أو الأمة الوحيدة - التي لا تضـطهد المخـالفين لها في العقيدة، بل ترعاهم، وتؤمّنهم على عقائـدهم وعبـاداتهم وكل نشاطاتهم الاقتصادية والحياتية ما داموا غـير محـاربين ولا مجـاهرين بالعداء!

باختصار.. كانت هي الأمة المتحضرة في الأرض..

* * *

ولكن انقلابا هائلا حدث في التاريخ!

لم يحدث بطبيعة الحـال بين يـوم وليلـة.. فلا شـيء يحـدث بين يوم وليلة إلا أقدار الله الخارقة! وحتى " الانقلابات العسكرية " التي سـرت في عصر " التنـوير!! " الـذي نعيشه اليـوم، لا تتم بين يـوم وليلة، إنما تستغرق وقتا في التفكير، وفي التحضير، قبل أن يفاجأ بها الناس على ساحة الواقع..

إنما حدث الانقلاب خلال عدة قرون..

تدريجيا.. انحسرت مساحة " الدين " في النفوس.

لقد نزل هذا الدين ليشمل الحياة كلها من كل جوانبهـا، لا ليحتل جانبا واحدا من جوانب الحياة، أيًّا كـان حجمه وأهميته الذاتيـة: **(قُلْ إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَـاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ...)** [1].

فالإيمان بالله الواحد هو أهم ما في حياة الإنسـان وأثمن ما في هذه الحياة. ولكنه إن استثمر في داخل الوجدان، ولم يبسط إشعاعه على مساحات الحياة المختلفة، فلن يكون هو " الـدين " الـذي أنزله الله، وأمر باتباعه، وعاقب على تركه، وأثاب على الإتيان به!

إنما دين الله هو " ما وقر في القلب وصدّقه العمل ".

إن الله لم يطلب من النـــاس فقط أن يؤمنـــوا في أعمـــاق وجدانهم بأنه سبحانه هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـد.. وإن كـان هـذا هو الأسـاس الـذي ينبـني عليه كل شيء.. إنما طلب سبحانه من الناس أن يسـري التوحيد في كل جنبـات حيـاتهم باتبـاع أوامـره والانتهـاء عن نواهيه والالـتزام بما

---

[1] سورة الأنعام (162 - 163)

أنزل من تشريع وتوجيه.. وكل حيد عن هذا السبيل أو مخالفة له هي نقص في الإيمان يؤثر في " الميزان " كما يؤثر في النتائج! والإيمان - كما يقـــــول علماؤنا - يزيد وينقص. يزيد بالطاعـــــات وينقص بالمعاصي.

وتختلف درجات النقص بـاختلاف نـوع الحيد ومقـدار المخالفـة، وإن كــانت لا تنقض أصل الإيمــان إلا إذا وقع من الإنســان عمل من الأعمال الناقضة المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسوله وأجمع عليها العلمـاء، كمن سب الله أو رســوله صــلى الله عليه وســلم، أو سجد إلى صنم، أو أهان المصحف، أو شرّع بغير ما أنزل الله..

ويعمل هذا الدين في واقع الأرض ويؤتي ثمــاره الجنية **بمقدار ما يلتزم به أهله ويتبعـون ما جـاء فيـه.** فـإن لم يلـتزموا، ولم يتبعــوا، ينحسر " الــدين " في نفــوس النــاس، وتنحسر ثمــاره في الأرض **بمقـــدار ما حـــدث من الحيـــد، ومقـــدار ما وقع من الانحراف**.

والآيات في كتاب الله واضحة تمام الوضوح في هذا الأمر، كما هي في كل أمر: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَـــالِمٌ لِنَفْسِـــهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـــدٌ وَمِنْهُمْ سَـــابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)** [1]**.**

وكل هـؤلاء مؤمنـون - على درجـات من الإيمـان، ودرجـات من فضل الله ورحمته ورضوانه - ما لم ينقضوا أصل الإيمان. أما هؤلاء: **(وَيَقُولُـونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُـولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَـوَلَّى فَرِيـقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُـوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُـولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيـقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُـونَ)** [2]**. (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـــونَ حَتَّى يُحَكِّمُـــوكَ فِيمَا شَـــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجـاً مِمَّا قَضَـيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْـلِيماً)** [3]**.**

* * *

تلك حقيقة الدين كما أنزلها الله، وكما علمها رسـوله صـلى الله عليه وسلم لأصحابه، وكما فهمتها الأجيال الأولى من المسلمين.

---

1 سورة فاطر (32)

2 سورة النور (47 - 48)

3 سورة النساء (65)

لذلك كان الفكر الإرجائي الذي دخل في حيـاة المسـلمين غريبا كل الغربة عن الإسلام الذي أنزله الله، ذلك الفكر الذي يخرج العمل من مسمى الإيمان، بل من مقتضاه، والـذي يقـول: " من قـال لا إله إلا الله فهو مـؤمن ولو لم يعمل عملا واحـدا من أعمـال الإسـلام "، والذي يقول: " الإيمان هو التصديق والإقـرار، وليس العمل داخلا في مســمى الإيمـــان "، (والمســـمى ليس هو الاسم كما يخيل لبعض الناس، إنما هو حقيقة الشيء الذي يطلق عليه الاسـم، ومنه قـولهم: اسم على مسمى. أي اسم صادق الوصف للموصوف به).

نعم! كـان هـذا الفكر غريبا كل الغربة عن الإسـلام، وكتـاب الله المنزل يتكرر فيه مئات المرات قوله تعالى: **(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)** ويرد فيه مثل هذه الآيات: **(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً)** [1]. **(إِنَّ هَذَا الْقُـرْآنَ يَهْـدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْـوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُـؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـراً كَبِـيراً)** [2]. **(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَـداً)** [3]. **(وَمَا أَمْـوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِـالَّتِي تُقَـرِّبُكُمْ عِنْـدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَـزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)** [4].

وكـذلك كـان الفكر الصـوفي غريبا عن الإسـلام كما أنزله اللـه، ذلك الفكر الذي يحصر العبـادة في الوجد الـروحي والـذكر، ويضـخم الشــيخ في حس المريد حــتى يصــبح واســطة بينه وبين اللــه، بينما الإسـلام ينفي كل وسـاطة بين العبد والـرب، ويجعل العبـادة شـاملة لكل حياة الإنسان، ويجعل الجهاد ذروة سنام الأمر:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) [5]. **(وَقَـالَ رَبُّكُمُ ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ)** [6]. **(قُـلْ إِنَّ صَـلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَـرِيكَ لَـهُ..)**

---

[1] سورة الكهف (2 - 3)
[2] سورة الإسراء (9)
[3] سورة الكهف (110)
[4] سورة سبأ (37)
[5] سورة البقرة (186)
[6] سورة غافر (60)

[1]. (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [2].

" ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد " (أخرجه الترمذي).

كذلك كان حصر الإسلام في النطاق الفردي وإسقاط التكاليف الجماعية والاجتماعية والسياسية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غريبا عن الإسلام كما أنزله الله، وقد فرض الله هذه التكاليف كلها كما فرض التكاليف الفردية وإن كان قد جعل بعضها فرض كفاية لا فرض عين، ولكن الأمة تأثم بمجموعها إن لم يقم فيها أحد بهذه التكاليف.

وكذلك كان التواكل وإهمال الأخذ بالأسباب بحجة التوكل على الله غريبا عن الإسلام كما أنزله الله، الذي أمر بالتوكل ولكنه أمر معه باتخاذ الأسباب: **(فَإِذَا عَزَمْتَ [3] فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [4]. (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) [5]. (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[6].**

كذلك كان انفراج الطريق بين العمل للدنيا والعمل للآخرة غريبا عن الإسلام كما أنزله الله، والله يقول: **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..) [7].**

ولكن هذه الأمراض كلها وجدت في الأمة - تدريجيا - ثم تزايد حجمها وأثرها كلما مر عليها الزمن دون علاج.

---

1 سورة الأنعام (162 - 163)

2 سورة الصف (11 - 12)

3 العزيمة ليست هي مجرد النية،إنما تشمل الإعداد لتحقيق النية

4 سورة آل عمران (159)

5 سورة الأنفال (59 - 60)

6 سورة الملك (15)

7 سورة القصص (77)

ولا نقـول مع ذلك إن العلاج لم يوجد أبـدا، فـذلك ظلم للتـاريخ، ولم يمر على المسلمين عصر خلا تماما من المصلحين. ولكن نقــول إن حركات الإصلاح كانت أقل من المطلوب، في حين كانت الأمراض تتزايد على الدوام.

*　　*　　*

حين انحسر الإســلام في قلـــوب النـــاس - إلا من رحم ربك - انحسر إشـعاعه في عـالم الواقـع.. فالإشـعاع المنعكس على عـالم الواقع إنما مصدره ذلك النور المنبعث من القلـوب، وعلى قـدر قـوة ذلك النور أو ضعفه تكون الإضـاءة أو يكـون الظلام، حسب سـنة الله التي لا تتخلف ولا تحـابي ولا تجامل أحـدا من النـاس لـدعوى يـدعيها بلســانه ولا يعمل بها في عــالم الواقــع: **(فَلَنْ تَجِـدَ لِسُـنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْـوِيلاً)** [1]. **(لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْـزَ بِـهِ وَلا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)** [2].

ومن ثَمَّ أخـــذت الأمة رويـــدا رويـــدا تـــدخل في الظلام: ظلام الجهل.. ظلام الضعف.. ظلام التخلف.. ظلام الفقر.. ظلام الجمود.. ظلام الانحسار.

ولم يكن ذلك بسبب " الـدين " كما يـزعم المطموسو البصـيرة الذين أضاع الغزو الفكري ألبابهم، إنما كـان - كما هو واضح - بسـبب البعد التدريجي عن حقيقة الدين.

*　　*　　*

وفي الـوقت الـذي بـدأت فيه الأمة الإسـلامية تضـعف وتنكمش وتنحســر، كــانت أوربا قد بــدأت تــبرز وتتقــدم وتتوســع، في جميع المجالات التي انحسر فيها الوجود الإسلامي!

وكــان في هــذا الوضع جملة من المفارقــات، تبــدو غريبة لأول وهلــة، ولكنها منطقية ومفهومة إذا عرضـناها على السـنن الربانيـة، وعلى وعد الله ووعيده.

كـانت نهضة أوربا - كلها تقريبا - مسـتمدة من أصـول إسـلامية، ومع ذلك كــــان موقف أوربا من الإســـلام هو موقف الجاحد الحاقد المتربص المتنمر المتأهب للانقضاض!

---

[1] سورة فاطر (43)

[2] سورة النساء (123)

كانت أوربا قد خرجت من قرونها الوسطى المظلمة على هـدى ما اقتبسته من علوم المسـلمين وفنـونهم وحضـارتهم، ولكنها كـانت في الوقت ذاته معادية للإسلام والمسلمين.

ولم يكن هــذا رد الفعل التلقــائي، أو الطــبيعي في مثل هــذا الموقف.

لقد ظلت أوربا في قرونها الوســطى المظلمة ما يقــرب من عشرة قرون، لا تحس أنها في ظلام! ولم تشعر بالظلام وتـرغب في الخروج منه إلا حين رأت النور! نور الإسلام!

وقد كـان احتكاكها بالإسـلام - الـذي أخرجها من الظلمـات إلى النــور - عن طــرق ثلاث. أحــدها الحــروب الصــليبية الــتي أطلعت الأوربــيين على بلاد تعيش حيــاة مختلفة تماما عن حيــاتهم في كل اتجـاه، ثم العلاقـات التجارية الـتي أقامتها جنـوة والبندقية وغيرهما بالعــالم الإســلامي، ثم البعــوث التعليمية الــتي أرســلتها أوربا إلى المدارس الإسلامية في الأندلس وصقلية الإسـلامية وغيرهما من بلاد المســلمين، والــتي عــاد منها أولئك المبعوثــون في شــغف هائل بالحضارة الإسلامية والعلوم الإسلامية والفكر الإسلامي..

وكانت أوربا - بهذه التأثيرات - على وشك أن تدخل في الإسلام كما يقول المؤرخ البريطاني ويلز في كتاب " معالم تاريخ الإنسانية " [(1)] وكما يشير غيره من المؤرخين والكتاب الغربيين [(2)].

وهنا جن جنــون الكنيسة الأوربيــة، وقــامت تحــارب النفــوذ الإسلامي بضراوة ووحشية، عن طريق محـاكم التفـتيش من ناحيـة، كما كلفت كتابها وشــعراءها من ناحية أخــرى أن يشــوهوا صــورة الإســلام في نفــوس الأوربــيين، ويرمــوه بكل نقيصــة، لينفـروا منه الراغبين فيه، أو المتأثرين بحضارته وعلومه وفكره.

ويجب أن نعـرف - نحن المسـلمين بصـفة خاصة - أن جوردانو برونو أحرق حيا، وهدد كوبرنيكوس وجاليليو بالحرق أحياء لأنهم تبنـوا أفكارا علمية مستمدة من العلماء المسلمين. فكان حرق من أحــرق والتهديد بحــرق الآخــرين موقفا صــليبيا في مبعثــه، وفظا متوحشا كطابع الحـروب الصـليبية كلها من أول التـاريخ إلى اللحظة الراهنـة، الـتي رأينا نمـاذج منها في البوسـنة والهرسك وكوسـوفا والشيشـان

[1] () جـ 3 ص 966 من الترجمة العربية - ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة

[2] () انظر على سبيل المثال "شمس ا تشرق على الغرب" من تأليف زيجريد هونكة

(في عصر الديمقراطية والحرية واحـــترام " الآخر "!!) وإن كـــانت المراجع الأوربية لا تشير بطبيعة الحال إلى هذه الحقيقة..

إنما الــذي يهمنا هنا أن نــبين أنه نتيجة لأفاعيل الكنيسة وقعت أوربا في مـأزق ضـخم كـانت آثـاره وبـالاً على البشـرية. فطغيـان الكنيسة في القـرون الوسـطى (الـذي لم تشـعر أوربا أنه طغيـان إلا بعد احتكاكها بالإسلام والمسـلمين) كـانت نتيجته أن أوربا نفـرت من دين الكنيسة وتمردت عليـه. وفظاظتها في حـرب النفـوذ الإسـلامي بالتعـذيب والتشـويه كـانت نتيجته أن أوربا نفـرت من الإسـلام ولم تـدخل فيـه، فـرجعت أوربا إلى ميراثها الإغـريقي الرومـاني الوثـني تستمد منه أفكارها وقيمها ومبادئها في عداء واضح مع الدين.

وهنا ولدت الكارثة التي تعاني منها البشـرية إلى هـذه اللحظـة، وهي وجود قوة مادية وعلمية واقتصـادية وتقنية هائلـة، مع انحطـاط روحي وأخلاقي بـالغ المـدى، لم تهبط البشـرية إلى مثله في تاريخها كله..

هذا الوضع - على غرابته - لا يشـكل مشـكلة بالنسـبة للمسـلم الواعي الذي يدرك السنن الربانية، ويعلم من كتاب الله وسنة رسول صـلى الله عليه وسـلم كيف تجـري الأمـور في واقع البشر محكومة بهذه السنن التي لا تتبـدل ولا تتحـول. ولا يشـكل هـذا الوضع له فتنة تفتنه عن دينه، لأنه يقرأ في كتاب الله قوله تعالى: **(فَلَمَّا نَسُـوا مَا ذُكِّرُوا بِــهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْــوَابَ كُــلِّ شَــيْءٍ..)** [1] فيعلم أنه لا تناقض ولا غرابة في أن يكون القوم كفارا وملاحدة، وأن تكون أبواب كل شــــيء من القـــوة المادية والعلميـــة والاقتصـــادية والحربية والسياسية مفتوحة لهم إلى حين يقدره الله سبحانه وتعالى بحكمته: **(حَتَّى إِذَا فَرِحُــوا بِمَا أُوتُــوا** [2] **أَخَــذْنَاهُمْ بَغْتَــةً فَــإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَالْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** [3].

نعم! لا غرابة في هـذا الوضع بالنسـبة للمسـلم الـواعي الـذي يــدرك ســنن اللــه. ولكنه فتنة ضـخمة لمن لا يــدرك هــذه الســنن وحكمتها، لأن الحسبة ستكون في رأسه على هـذا النحـو: لقد كـانت أوربا في يوم من الأيام متدينة، فكانت تعيش في ظلام مطبق، وكان

---

1 () سورة الأنعام (44)

2 () أي استولى عليهم الغرور، وطغوا في الأرض بغير الحق

3 () سورة الأنعام (44 - 45)

يحيط بها الجهل والجمـود من كل جـانب، فلما نبـذت الـدين تقـدمت وتحضرت وقفـزت قفـزات هائلة في كل اتجـاه! إذن.. فالـدين صـنو للظلام والتـأخر ؛ والكفر والإلحـاد والتمـرد على الـدين صـنو للتقـدم والتحضر و الرقي!!

أية فتنة لمن طمست بصيرته عن إدراك سنن الله وحكمتها؟!

وليس بنا هنا أن نفند هذه الفتنة فقد فنـدناها في أمـاكن أخـرى [1].

ولكن يعنينا كثـيرا أن نبين مسـئولية الأمة الإسـلامية في هـذه الفتنة، وهي مسئولية ضخمة في الحقيقة.

فلو أن الأمة الإسـلامية لم تقع في أمراضـها الـتي سـردنا جانبا منها فيما سبق، أو لو أن الأمة عالجت أمراضها أولاً بـأول ولم تـدعها تستفحل كما حـدث بالفعـل، فـإن صـورة أخـرى غـير الواقع الحـالي كانت قمينة أن تقع في الأرض بتقدير الله.

كـــانت أوربا ســـتتقوى بما تعلمت من علـــوم المســـلمين، وبالإضافات التي أضافتها إليها في انطلاقتها الفتية التي اكتسبتها من تحطيم القيـود الـتي كـانت الكنيسة تكبلها بها باسم الـدين.. ولكنها **أولا**: لم تكن لتبلغ ما بلغته اليوم من القوة، فإنها لم تبلغ هذا المـدى من القـوة إلا **بضـعف المسـلمين** حين انطلقت أوربا الصـليبية - مدفوعة بصـليبيتها - تحتل بلاد العـالم الإسـلامي، وتسـرق مواردهـا، وتضاعف ثروتها، وتستزيد كل يوم من وسائل القوة الـتي تمكنها من مزيد من السـيطرة، ومزيد من سـلب ثـروات المسـلمين.. ثم إنها **ثانيا**: لم تكن لتكـــون هي النمـــوذج الوحيد أمـــام النـــاس للقـــوة والتمكين. إنما كان سيوجد نموذجان للتمكين والقوة، أحدهما مـؤمن والآخر كافر، فيسهل على الناس أن يميزوا بين كلا النوعين ليختـاروا أحسـنهما. فأحـدهما قـوي ممكّن في الأرض، متقـدم متحضر متعلم مثقف نشـيط متحـرك، تحفّه البركة والطمأنينـة: **(الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِـذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـوبُ)** [2]. **(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)** [3].

---

[1] انظر على سبيل المثال: "قضية التنوير في العالم الإسلامي"

[2] سورة الرعد (28)

[3] سورة الأعراف (96)

والآخر قــوي ممكّن في الأرض، متقــدم في الجــوانب المادية والعلمية، ولكنه محروم من البركة والطمأنينة، يعج بالقلق والانتحــار والجنون والأمراض النفسـية والعصـبية والمخـدرات والجريمـة.. كما أن أحـدهما - مع قوته وتمكنه - لا يسـعى إلى ظلم الآخـرين وسـلب أقـواتهم والتحكم المـذل فيهم، بينما الآخر قـوة غاشـمة لا تكف عن العدوان وإذلال الآخرين لا لشيء إلا لإرواء شهوة السلطان!

عندئذ لم تكن لتوجد الفتنة.. أو في القليل لم تكن الفتنة لتجتاح كل الأرض!

*　　*　　*

لقد كان غياب الأمة الإسلامية عن السـاحة هو الكارثة الحقيقية الــتي أصــابت البشــرية، لأنه أخلى الســاحة من النمــوذج الصــحيح للحضارة الإنسانية، وأتاح للنموذج المنحرف أن ينفـرد بالسـاحة، وأن يفتن الناس عن ربهم وآخرتهم ودينهم وأخلاقهم.. وإنسانيتهم!

ولقد كـانت حكمة الله من إخـراج هـذه الأمة أن ترشد النـاس.. كل الناس.. إلى النموذج الصحيح: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَــطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَــهِيداً)**[1]. **(كُنْتُمْ خَيْــرَ أُمَّةٍ أُخْــرِجَتْ لِلنَّاسِ تَــأْمُرُونَ بِــالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)**[2].

وحين قـامت برسـالتها على الوجه الصـحيح أخـرجت كثـيرا من الناس من الظلمات إلى النور، سواء من آمن بالإسلام والتزم بــه، أو اقتبس من نــوره دون أن يــؤمن بخ كما فعلت أوربا في مَخْرَجها من قرونها الوسطى المظلمة..

ولكنها حين تقاعست عن أداء رسـالتها، بســبب ما أصــابها من أمراض في مسيرتها، فقد أتاحت الفرصة للطاغوت أن يبسط نفوذه على البشر، ويخرجهم من النور إلى الظلمات.

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَـرُوا أَوْلِيَـاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُـونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ...) [3].

*　　*　　*

---

[1] سورة البقرة (143)

[2] سورة آل عمران (110)

[3] سورة البقرة (257)

على أن الكارثة الكبرى التي أصابت البشـرية نتيجة غيـاب الأمة الإســلامية عن الســاحة لم تكن هــذه، إنما كــانت بــروز اليهــود، وسيطرتهم الحالية على مقدرات البشرية.

وقد يفاجأ القـارئ بهـذه المقولـة، وقد يسـتغربها.. ولكن ها هي ذي - ببساطة - وقائع التاريخ.

فمــتى بــدأت الســيطرة الحالية لليهــود، وكيف وصــلت إلى ما وصلت إليه اليوم؟

بدأت مع الثورة الصناعية..

فقد كانت الثـورة الصـناعية في حاجة إلى عنصـرين أساسـيين: المال الوفير الـذي يمكن أن ينشئ المصـانع، والعمـال المحشـودين في المدن التي تقوم فيها المصانع.

فأما العمــال فقد كــانوا محتجــزين في الأرض الزراعية الــتي يملكها أمراء الإقطاع، وكانوا عبيدا في تلك الأرض لا يملكون الانتقال منها إلى المدينـة، بل لا يملكـون الانتقـال من إقطاعية إلى أخـرى إلا بإذن أمير الإقطاعية، وإلا اعتـبروا عبيـدا آبقين، وأعيـدوا إلى أرضـهم موسومين على جباههم بالنار..

وكان لا بد من تحطيم الإقطـاع من أجل تغذية الثـورة الصـناعية بالعمال..

وقــامت الثــورة الفرنســية بــذلك.. وحــررت " عبيد الأرض " ومنحتهم حرية الانتقال.

ومعلوم لكل الناس دور اليهود في إشعال الثورة الفرنســية عن طريق الجمعيـات الماسـونية المنتشـرة يومئذ في فرنسـا، وإن كـان قــول اليهــود إنهم هم الــذين صــنعوا الثــورة الفرنسـية تبجح يتجـاوز الواقع، فلـولا الغضب المكبـوت المـتراكم خلال القـرون من مظـالم الإقطـاع وفظائعه ما اسـتطاع اليهـود أن يفجـروا الثـورة على النحو الذي فعلوه..

وأما المـال اللازم لإدارة الثـورة الصـناعية فلم يكن متـوافرا إلا عند فئــتين اثنــتين في أوربا في ذلك الحين، هما أمــراء الإقطــاع والمرابون اليهود.

أما أمــراء الإقطــاع فقد امتنعــوا تماما عن تمويل الثــورة الصـناعية! فهم بـادئ ذي بـدء فلاحـون (وإن كـانوا أمـراء بالاسـم!) والفلاح لا يغامر بتشغيل ماله في غير الـدورة الزراعية الـتي يحفظها

عن ظهر قلب، ويحفظ تقلباتها واحتمالاتهــا. فهو يلقي البــذرة في الأرض، ويتعهدها حتى تخـرج محاصـيلها، فيسـتهلك منها ما يسـتهلك لنفسه، ويحتجز ما تحتاج إليه الأرض من "التقاوى " للزرعة القادمة، ويبيع الفائض في السوق..

ثم إن الثـورة الصـناعية في أول عهـدها لم تكن رابحة في كثـير من الحالات! فلم تكن هناك كثافة سكانية كبيرة في المدن، ولم تكن هناك طرق معبدة لتصريف الإنتاج على نطاق واسـع، ولم تكن هنـاك وسائل إعلان.. وكلها من الضـرورات الـتي لا تسـتغني عنها الصـناعة الرابحة.

وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك معوّقـات نفسـية تقف في وجه الثورة الصناعية، فقد كان الناس - في سذاجتهم - لا يرحبون بالإنتاج الآلي، لأن به - كما يعتقدون - مس شـيطان وأنه سـيمحو البركة من حياتهم، وكانوا لذلك يفضلون عليه الإنتاج اليدوي [1]!

وأما المرابـون اليهـود فقد أقبلـوا على تمويل الثـورة الصـناعية بشغف شديد، ولعاب سائل! ذلك أنهم لا يشغّلون أمـوالهم مباشـرة، ولا يتعرضون للـربح والخسـارة، وإنما يقرضـونها بالربـا، والمقـترض يكسب أو يخسر حسب ظروفه وظروف السوق، أما هم فقد ضـمنوا أموالهم - قبل إقراضـها - وضـمنوا إلى جانبها مكسـبهم الربـوي عن طريق الشروط التي يضعونها للإقراض!

وبذلك وقعت الثورة الصناعية في قبضــتهم منذ اللحظة الأولى، وصاروا هم مديريها ودهاقنتهـا. وعن طريق الأربـاح الربوية الضـخمة اشـتروا الـذهب، وتحكمـوا به في عملات الأرض، ثم اشـتروا وسـائل الإعلام، ثم اشتروا الساسة وضمائرهم.. وسـيطروا على كل الأرض! وحين سيطروا أثـاروا الحـروب بين الـدول لـترويج صـناعة السـلاح - وهم روادها وتجارها من قديم - فزادت صناعة السـلاح من ثـرواتهم، ومن قدرتهم على التحكم في مقدرات البشرية!

تلك - باختصار شديد - قصة السيطرة اليهودية التي تهيمن الآن على الناس. وفي طياتها كثير من التفصيلات التي لا يتسع المقام هنا للحـديث فيهـا، إنما نــذكر منها مجــرد ذكــر: نشر الفســاد الخلقي، والفوضى الجنسية، والإلحاد، والمخدرات، وألوان الجنون المختلفــة:

---

[1] (1) كان حدس الناس صادقا في هذا الأمر، ومحقت البركة بالفعل من حياة الناس لا بسبب الصناعة في ذاتها كما ظنوا بسذاجتهم، ولكن بسبب الطريقة الربوية التي أديرت بها الصناعة كما سيجيء بعد قليل!

جنـون الكـرة، وجنـون السـرعة. وجنـون الـرقص. وجنـون الأزيـاء (الموضة)..

إلى جانب النزاعـات الدولية المسـتمرة الـتي تـؤدي إلى جنـون التسلح..

والآن يـأتي السـؤال: ما دور الأمة الإسـلامية في كل ذلـك؟ أو بالأحرى ما مسئوليتها في كل ذلك؟

إن مسئوليتها أعظم بكثـير، وأخطر بكثـير مما يـدور في خلـدها في وضعها الراهن، وهي مقهـورة مسـتذلة مستضـعفة، تنهـال عليها الضربات من كل جانب.

فلو أنها كـــانت قائمة برســـالتها على الوجه الصـــحيح، عاملة بمقتضيات تلك الرسالة في عالم الواقـع، فـأين كـان يتوقع أن تقـوم الثورة الصناعية ابتداءً؟

كـانت سـتقوم بطبيعة الحـال في أكـثر البلاد تقـدما من الناحية العلمية والعملية.. فأين كان ذلك في أيام قيام الأمة برسالتها؟

ألم تكن في بلاد المسلمين؟ في الأندلس. وصـقلية الإسـلامية، وفي بلاد المشرق المختلفة؟

ولو قـامت الثـورة الصـناعية - المنبثقة من اخـتراع الآلة - في داخل العالم الإسـلامي، فهل كـانت سـتقوم على الربـا، المحـرّم في شريعة الله؟

وحين ينسد هذا الباب - الذي نفذ منه اليهود بضراوة - فهل كان سيتاح لهم كل ما أتيح لهم من سيطرة عن طريق الربا وجمع الذهب وشراء ضمائر الساسة وإفساد الأخلاق؟!

الإجابة واضحة.. أو لعلها الآن قد وضحت..

* * *

إن علو اليهود وإفسـادهم في الأرض قـدر مقـدور، مكتـوب في كتاب الله: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَـابِ لَتُفْسِـدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً)**[1].

وسواء أكانت المرتان المذكورتان في كتاب الله تاريخـاً مضـى، أم كانت إحداهما قد مضت والثانية هي الواقعة اليوم كما يــرى بعض الـذين يتعرضـون لتفسـير الآيـة، ففي كتـاب الله إشـارة إلى مكـان

---

[1] سورة الإسراء (4)

عودتهم إلى الفساد والإفساد في قوله تعالى بعد ذلك: **(وَإِنْ عُـدْتُمْ عُدْنَا)** [1].

ولكن كتاب الله علمنا أن كـون الشـيء قـدرا لا ينفي مسـئولية البشر حين يتصرفون تصـرفا خاطئا يتعلق به ذلك القـدر. ففي وقعة أحد التي وقعت فيها مخالفة المسلمين لتعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم نزل قوله تعالى: **(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَـبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِـكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا...)**[2].

هو قـــدر، وله حكمته عند اللـــه. ولكن مســـئوليتكم فيه قائمة لمخالفتكم أمر قائدكم عليه الصلاة والسلام.

والسـيطرة العالمية لليهـود القائمة اليـوم قـدر، وله حكمته عند الله سـبحانه وتعـالى. ولكن لا ينفي ذلك مسـئولية الأمة الإسـلامية، التي أقامها الله لتكون شاهدة ورائدة لكل البشرية.

لقد قصــرت الأمة تقصــيرا واضــحا في أداء رســالتها، ســواء بالمنازعات الـتي قضت على دولة المسـلمين في الأنـدلس (وكـانت منارة العلم والحضارة والتقدم في أوربا) والتي استعان فيها الأمـراء المســلمون بعضـهم على بعض بالصـليبيين (!) أو بـالجمود الفكـري والروحي والعلمي في المشـرق، أو بالبـدع والمعاصي والانحرافـات العقديـة، أو بالتقـاعس عن إعـداد العـدة، أو بالانصـراف عن عمـارة الأرض، أو بالسكوت على الاستبداد السياسي، أو.. أو..

وكانت النتيجة حسب سـنة الله هي انحسـار الوجـود الإسـلامي في الساحة بسبب ما تغـير من حقيقة الإسـلام في النفـوس: **(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** [3].

وترتب على انحسار الوجود الإسلامي بروز القوة الجاهلية الـتي تحكم الأرض اليـوم، سـواء عنينا بها الغـرب في مجموعـه، أو أمريكا بالذات، أو اليهود الذين يسيطرون هنا وهناك..

وتظل الأمة الإسـلامية تحمل مسـئوليتها في ذلك أمـام اللـه.. وأمام التاريخ.

---

[1] سورة الإسراء (8)

[2] سورة آل عمران (166 - 167)

[3] سورة الأنفال (53)

وهنا نــأتي إلى نقطة هامة يجب الإشــارة إليها في ختــام هــذه الحديث.

إن أكـــثر المتحـــدثين عن الأوضـــاع القائمة في الأرض اليـــوم يتــأرجحون بين اتجــاهين، أحــدهما يلقى باللائمة - كاملة - على الأمة الإسلامية، والآخر يلقي باللائمة - كاملة - على الغــرب ومؤامرته ضد الإســلام. وكل فريق يــدافع - بحــرارة - عن اتجاهــه، ويصب اللــوم - وأحيانا اللعنات - على الفريق الآخر.

والتفكير على هذا النحو يؤدي إلى نتائج خاطئة، سواء صــدر عن العلمانيين، الذين يسخرون من فكرة المــؤامرة ويهــزأون بمعتنقيهــا، أو عن الإســلاميين الــذين يفســرون الأمر كله بــالمؤامرة القائمة ضد الإسلام.

إن الأمــرين معا موجــودان اليــوم في الســاحة! وإثبــات وجــود أحدهما ليس على الإطلاق نفيا لوجود الآخر! لأنهما ليسا متعارضــين، بل هما متصاحبان متعانقان! فتقصير الأمة الإســلامية حقيقة واقعــة، ومـــؤامرة الغـــرب على الإســـلام حقيقة واقعة لا ينكرها إلا مغالـــط. وكلاهما يتفاعل مع الآخر. فلــولا تقصــير الأمة الإســلامية ما اســتطاع الغــرب الصــليبي أن ينفذ مؤامرته ضد الإســلام، ولــولا المــؤامرة ما أحبطت كل المحــاولات الــتي تقــوم بها الأمة لمعــاودة النهــوض من كبوتها.

والحديث النبوي الشريف الذي صدرنا به هــذا البحث يشــير إلى الأمرين معاً متصاحبين متعانقين: تكالب الأعــداء على الأمة كتــداعي الأكلة على قصــعتها (وهــذه هي المــؤامرة) وكــون الأمة في وضــعها الحــالي غثــاء كغثــاء الســيل، لما أصــابها من الــوهن، وهو حب الــدنيا وكراهية الموت.

وإن هذا الحــديث الــذي يصف أحوالنا اليــوم بهــذه الدقة لهو من الوحي.. وإنه لمن الإعجاز.

ماذا يملك المسلمون؟

يقلّب المسلمون في مشـارق الأرض ومغاربها أكفّهم في حـيرة ويقولـون: مـاذا نفعل إزاء العولمـة؟ هل نملك شـيئا في الحاضر أو المستقبل؟

أما في الحاضر فقد تكون الإجابة صـعبة بالفعـل.. ولكن لا ؛ لأن العولمة هي ذلك الغول الذي لا يقهر، والـذي لا يملك النـاس إزاءه إلا الإذعـان والتسـليم.. فقد بـدأت المجابهة بالفعل في المـؤتمر الـذي أقيم في مدينة " سـياتل " ولكنها - مع الأسف - كـانت من غـير المسلمين!

إنما تأتي صعوبة الإجابة من سوء الحال التي وصـلت إليها الأمة الإسلامية..

لم تصل الأمة في تاريخها كله إلى هذه الدرجة من الهـوان على نفسها وعلى الناس، تطـارَد وتشـرّد ويـذبّح أبناؤها بعشـرات الألـوف ومئـات الألـوف في أوربا وأفريقيا وآسـيا ولا تتحـرك، ولا يصـدر عنها فعل يوقف هـذه المـذابح الوحشـية أو يـرد عليهـا. وتسـلب منها فلسطين، وتسلب منها القدس وهي واقفة تتفرج كالمأخوذ..

ومن جهة أخـرى لم يتجمع العـالم كله على الأمة الإسـلامية كما تجمّع اليـوم، يأكل حقوقها علانيـة، ويسـلب أقواتهـا، ويحـارب دينها ومعتقـداتها ومقومـات وجودها الفكـري والـروحي والمـادي، وهي عـاجزة مسـلوبة الإرادة.. وإن همت بحركة أو حـتى حـدثت نفسـها، تمتد أصـابع العصـابة الدولية كلها صـارخة: أصـوليون! إرهـابيون! اقتلوهم! أو ضعوهم في السجون!

وفي الوقت ذاته هناك نقص فادح في أدوات المواجهة..

فمن أدوات المواجهة الخـبرة التكنولوجية والتصـنيع، والأمة في كلا المجالين فقـيرة إلى حد يقـرب من الإفلاس، وفي الجـانب الآخر وحـوش ضـارية تتجمع لتأكل الأخضر واليـابس، ولتعطل كل حركة تهدف إلى اكتساب الخبرة أو تنمية الإنتاج.

نعم! ولكن..!

من قديم كان يستوقفني وأنا بعد فتىً حديث للرسول صلى الله عليه وسـلم يقـول: " من رأى منكم منكـرا فليغـيره بيـده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يسـتطع فبقلبـه، وهو أضـعف الإيمـان " [1]

[1] متفق عليه

وحديث في ذات الاتجاه يقول: " فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مـؤمن، ومن جاهـدهم بقلبه فهو مـؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل " [1].

كان يستوقفني بشدة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سـماه جهادا، وسماه تغييرا، مع أنه مستكن في داخل القلب، ولا يغـير شـيئا من الواقع المراد تغييره!

وحين كبر وعـيي، وزادت تجـاربي فهمت أشـياء مما كـان خافيا علي من معاني الحديث.

إن الجيش في المعركة قد ينهزم، وقد يتقهقر، وقد يلجئه العـدو إلى الخروج من ساحة القتال.. نعم! ولكن! هناك قلعة أخيرة يحتمي في داخلها حـتى تواتيه الفرصة لمعـاودة القتـال. وطالما هو محتم بقلعته لم يسـلمها للعـدو، فهو في حالة جهـاد، لأنه ما زال محتفظا بجنديته وباسـتعداده. أما إذا سـلم القلعة فقد انتهى الأمـر، وحلت الهزيمة التي ليس منها فكاك!

وتلك القلعة بالنسبة للمنكر هي القلب..

ومن ثم يسمي الرسول صـلى الله عليه وسـلم الإنكـار بـالقلب جهادا، ويسميه تغييرا، مع أنه لا يغير شيئا في الواقع الراهن.

إن المنكِر بقلبه لم يستسـلم للأمر الواقـع، ولم يعطه شـرعية الوجـود. لم يعتـبر الواقع صـوابا، أو ضـربة لازب لا فكـاك منهـا. إنما اعتبر فقط أنه الآن في هذه اللحظة عاجز عن التغيير بسـبب ضـعفه أمام ضراوة المنكر. ولكنه مؤمن بـأن موقفه هو - هو الصـواب، وهو الـذي له شـرعية الوجـود، أما المنكَر فلا شـرعية لـه، ولا هو على صواب، وإن كانت له السيطرة في اللحظة الراهنة.

هل يستوي هو والذي سلم القلعة، ونفض يديه من المعركة؟

كلا بالطبع! لا يستويان مثلا!

فأما الأول فهو الآن عاجز. نعم، لا يملك من أمر نفسه شيئا وهو محـاط ومحاصر ومقهـور، ولكنه مـؤمن بقضـيته ما يـزال. وما يـزال يراقب الأحداث، يتلمس الفرصة التي قد تسنح في أية لحظة، ليخرج من القلعة، ويعود إلى الميدان.

---

[1] (1) أخرجه مسلم

وأما الآخر فقد انتهت القضية في حسه، واستكان للأمر الواقــع، ولم يعد يفكر في تغيـيره.. بل خطّأ نفسه على موقفه الســابق منــه، وعزم على ألاّ يعود!

فــرق هائل في الحقيقـــة. والرســـول الملهم صـــلى الله عليه وسـلم، يعلم - بما علمه ربه - حقيقة الفـرق بين الأمـرين. ولكنه في الـــوقت ذاته يحـــذر من الركـــون إلى هـــذا الوضع ركـــون الراحة والاستقرار! فهو يعلم - بما علمه ربه - أن النفوس تركن وتسترخي! فيقــول محــذرا: " وذلك أضــعف الإيمــان "، " وليس وراء ذلك من الإيمــان حبة خــردل ".. لكي يحــرص المــؤمن على ألا يــتزحزح عن موقفه الأخير هذا مهما كانت الظروف ومهما كانت الأحوال..

والمنكِر بقلبه لا يشــارك في المنكر الــذي عجز عن تغيـيره.. لا يشــارك فيه إلا مكرهــا. لأنه إن شــارك موافقا وراضــيا ومقتنعا فقد سلم القلعة، وترك المعركة إلى غير رجعة!

وهـذا هو " الجهـاد " الـذي أشـار إليه الرسـول صـلى الله عليه وسلم.. فهو يجاهد أن يسـقط.. يجاهد الهزيمة الداخلية الـتي لا بــرء منها، لأنها من أمراض القلوب.

" ألا وإن في الجسد مضـغة إذا صـلحت صـلح الجسد كلـه، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب " [1].

* * *

الأمة الإســـلامية قد لا تملك شـــيئا في الميـــدان الاقتصـــادي والصـــناعي في اللحظة الراهنة تقف به في وجه الزوبعة الكاســـحة التي تطلقها العولمة، لتبسط سيطرتها على كل الأرض..

أقول قد، ولا أقول إنه الشيء المؤكد، جريــاً فقط مع الاحتمــال الأسوأ الذي يصـوره دعـاة العولمـة، إذ يقولـون إنها الداهية الـدهياء، التي لا قبل لأحد بالوقوف في وجهها..

ومع ذلك فهي - حتى في لحظتها الراهنة - تملك كثيرا إذا لجأت إلى قلعتهــا، فتحصــنت في داخلها من الهزيمة الداخلية الــتي تجتــاح قلوب المهزومين.

فأما القضايا الاقتصادية فلا نتعرض لها هنا، ونترك الحــديث عنها للمختصـين في شـئونها، ولكنا نلمّح فقط إلى أن المنطقة الــتي امتد فيها الإســـلام بقـــدر من الله هي أغـــنى بقعة في الأرض، بمواردها

---

[1] رواه الشيخان

الطبيعية من مياه ونبات وخامات، كما أن تعدادها البشري يزيد اليوم على الألف مليــون. وهي تملك - رغم كل الضــعف الــذي تعانيه أن تشكل وحدة - أو وحدات - اقتصـادية تسـتغل مواردها وطاقاتها على نحو أفضــل، فتصــمد أمــام الضــغوط كما تفعل ماليزيا في الــوقت الحاضر، على الـرغم من كل العراقيل الـتي توضع عمـدا في طريقها لكي لا تفلت من الحصار!

وأما الخــبرة فيمكن أن تكتسب رغم كل العراقيــل.. فــالعقول الإســلامية المهــاجرة - الــتي ألجأتها ظروفها الخاصة أو العامة إلى الهجــرة إلى الغــرب - تملك الخــبرة، والغــرب ذاته يســتعين بها وبخبراتها حــتى في أدق الشــئون.. شــئون الطاقة النووية وارتيــاد الفضاء!

ومع ذلك فإنا نترك أمور الاقتصاد للمختصين..

أما أمورٌ أخــرى، فالأمة - بكل فــرد فيها - هي جهة الاختصـاص! وهي تملك الكثير!

أمر العقيــــدة.. أمر الأخلاق.. أمر القيم.. أمر المبــــادئ.. أمر الإنسان، وغاية وجوده، ومعيار إنجازاته.

هـذه أمـور يملكها كل فـرد ملكية خاصـة، بمعـنى أنها جـزء من كيانه الذاتي، لا ينفصل عن ذاتـه، وعن وجـوده الشخصـي، ويملك أن يحافظ عليها في داخل قلبه - في داخل قلعته - مهما كانت الفتن من حوله.

وهــذه الأمــور كلها يملك المســلم فيها زادا ربانيا أصــيلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفــه، بينما يملك الغــرب فيها بضــاعة زائفة مهما بلغ من لمعانها ؛ بضــاعة صــنعها البشر من عند أنفســهم وهم في أشد حالات الانحطـاط الـروحي والأخلاقي، لظـروف محلية بحتة عندهم، وإن زعموا أنها ذات طابع إنســاني شــامل، يشــمل - أو يجب أن يشمل - كل أرجاء الأرض!

ما الإنسان في نظر الغرب؟!

إنه ذلك الحيوان الدارويني المتطور، الـذي تطـور عقله وإبهامه (!) فاســتطاع أن يفكر وينطق ويســتخدم الأدوات، فصــنع الحضــارة المادية..

وأما هدفه في الحيـــاة فهو الاســـتمتاع الحسي من جهة والغلبة في الصراع - صراع البقاء - من جهة أخرى، وأدواته في الصــراع هي العلم والحرب والسياسة.

ثم إنه هو مرجع ذاتـــه، لا مرجع فوقـــه، وكل ما يفعله فتـــبريره الأوحد أنه صادر عنه.. أي أنه هو الإله..

وهذا الحيوان المتأله هو الذي يريد أن يفرض " حضــارته " على كل الأرض!!

كلا والله! ولن يكون بإذن الله..

إن الإنســان كما خلقه الله أعلى بكثــير، وأكــرم بكثــير، من أن ينحصر فيما تريد هــذه الحضــارة الزائفة أن تحصــره فيــه.. **(وَلَقَـدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)** [1].

إنه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. **(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)** [2].

والذين يتعاملون مع قبضة الطين وحدها ويهملون نفخة الروح لا يتعاملون مع " الإنسان "، وإنما يتعاملون مع مسخ مشـوه يقـول الله عنه إنه أضل من الحيــوان: **(لَهُمْ قُلُـوبٌ لا يَفْقَهُـونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِـــرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْـــمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)** [3].

ولا يشـفع لهم، ولا يرفع من هبـوطهم كل ما يملكـون من تقـدم علمي وتكنولوجي واقتصادي وحــربي وسياسي إلا حين يعــودون إلى إنسانيتهم كما خلقها الله من قبضة طين ونفخة وروح..

أما تأله ذلك الحيـــوان - والعولمة جـــزء من هـــذا التأله - فهو ممقــوت ملعــون عند اللــه، ثم إنه في الأرض إلى زوال حسب سـنة الله، مهما استكبر أصحابه في الأرض فترة من الزمان!

إن الحضارة الغربية تملك إيجابيات هائلة دون شك، لا ينكرها إلا مغالط، وتملك كذلك سلبيات هائلة لا ينكرها إلا مغالط.

فالتقــدم العلمي والتكنولــوجي وعبقرية التنظيم والجد في أخذ الأمور والمثابرة وطول النفس.. كلها إيجابيات. وهي التي تسند هذه

---

[1] سورة الإسراء (70)

[2] سورة ص (71 - 72)

[3] سورة الأعراف (179)

الحضارة وتطيل عمرها في الأرض حسب سنة من سنن الله: **(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ)**[1].

والفساد الخلقي والروحي والفوضى الجنسية والإباحية المفرطة والشذوذ والخمر والمخدرات والجريمة، والطغيان في الأرض بغير الحق وإذلال الآخرين وقهرهم، كلها سلبيات، مصيرها أن تعصف بهذه الحضارة - مهما طال مكثها في الأرض - حسب سنة من سنن الله: **(.. حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)** [2]. **(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)** [3]. **(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)**[4].

وهناك أمر مما تملكه هذه الحضارة يختلط فيه الحق والباطل بصورة تخفى على كثيرين، وتوقع في الفتنة كثيرين، فيأخذهم لألاؤها، فتنزلق أبصارهم عن مساوئها.

ذلك هو " الديمقراطية " و " حقوق الإنسان ".

لا يصدق الناس أنها مسرحية جميلة، وأن فيها من الباطل بقدر ما فيها من الحق!

أبرز وجوهها ولا شك هو الحرية السياسية، والحقوق والضمانات التي كسبتها " الشعوب " في مواجهة الطغاة المستبدين الذين كانوا يحكمونها من قبل، وكسبها " الفرد " إزاء " الدولة ".

ولكن من المسيطر الحقيقي وراء المسرحية الجميلة التي يبدو فيها الفرد العادي - الذي يسمونه في كثير من الأحيان " رجل الشارع " - وكأنه هو الذي يحكم، وهو الذي يقرر مصاير الأمور؟!

إنه في الواقع رأس المال! ومن الذي يسيطر على رءوس الأموال؟! إنهم - بداهة - اليهود!

ومن هنا يتضح كيف أن اليهود في أمريكا - وهم قلة عددية - هم الذين يعينون رؤساء الجمهورية، وهم الذين يسقطونهم إذا شاءوا أو يقتلونهم كما قتلوا كنيدي عام 1963 م حين لم يستجب لأهوائهم.

---

[1] سورة هود (15)

[2] سورة الأنعام (44)

[3] سورة آل عمران (137)

[4] سورة الحج (48)

إن المـواطن هنـاك هو الـذي ينتخب ممثليه الـذين يـذهبون إلى البرلمـان، والـذين يحاسـبون الحكومة ويقـررون لها سياسـتها. وهو ينتخب ممثليه بحرية كاملة لا ضغط فيها ولا تزوير.

نعم! ولكن!

من الذي يوجهه إلى اختيار هذا الشخص أو ذاك؟

أهو ذكاؤه الخـاص؟ أهو تفكـيره الـذاتي؟ أهو تعمقه في دراسة الأمور والموازنة بينها؟

أم هي وسائل الإعلام الـتي تصب في رأسه الأفكـار المطلوبـة، وتوجهه التوجيه المطلوب؟

ومن الذي يملك وسائل الإعلام؟!

حقيقة يقع تنافس حـاد بين " الأحـزاب " للفـوز بـأكبر عـدد من المقاعد ليتمكنـوا من الاسـتيلاء على دفة الحكم، ويقع هـذا التنـافس حرا - تماما - من كل تدخل تفرضه الحكومة القائمة في الحكم.

ولكن.. ما الفرق في النهاية بين هذه الحكومة وتلك في القضية الرئيسية، وهي سيطرة رأس المال، وسيطرة الذين يسيطرون على رأس المال؟!

هل هناك فرق حقيقي؟!

إذن فليتخيل من شاء أنه هو الذي يدير الأمور! وليتخيل من شاء أن " الشــعب " حقيقة هو الــذي يحكم ما دام هــذا لا يضر مصــالح الرأسمالية!

لو رجعنا إلى الشعار الذي رفعه اليهود على الثـورة الفرنسـية - التي ولدت منها الديمقراطية - نفهم أشياء كثيرة، مهمة ونافعة..

كان هذا الشعار هو: Laissez Passer - Laissez Faire.

والكلمة الأولى معناها " دعه يفعل (ما يشــاء) " والكلمة الثانية معناها " دعه يمر (من حيث يشـاء) " فمن الـذي يفعـل؟ ومن الـذي يمر؟

أما الذي يفعل (ما يشاء) فهو الناس.. الشعب.. رجل الشارع.. الفرد.. يفعل ما يشاء، و "ما يشاء " هـذه يـدخل فيها - بفعل التوجيه المخطط - حرية الإلحــاد، وحرية الفســاد الخلقي تحت عنــوان " الحرية الشخصــية " الــتي ترتكز عليها الديمقراطية وتجعلها هــدفا أساسيا في فلسفتها.

وأما الذي يمر (من حيث يشاء) فهو رأس المال. ترفع الحـواجز كلها من أمامه لكي يضــاعف أرباحـــه، أيًّا كــانت الوســائل الــتي يستخدمها، وأيًّا كان مردودها على الناس.. على الشعب.. على رجل الشارع.. على الفرد.. فمرة تكون خدمة حقيقية نافعة، ومـرة تكـون دمارا شاملا في النفوس والأخلاق.. وفي كل حالة يكون رأس المـال هو الرابح الأكبر، وكثيرا ما يكون هو الرابح الوحيد!

وهكـذا يختلط في هـذه الديمقراطية الحق والباطـل، وقد يغلب الحق مرة، أما الباطل فمرات..

وأيًّا يكن الأمر فلننظر مـــاذا تصـــدر إلينا العولمة حين تحكم قبضتها علينا! هل ستصدر لنا إيجابياتها؟ أم تصدر لنا السلبيات؟!

* * *

فأما التقدم التكنولوجي والعلمي فهي تسمح منه بالقدر الذي " لا يضر مصالحها! " أما " الأسرار " الأساسية التي يقوم عليها التقدم الحقيقي فحكر عليها لا تســمح لأحد أن يمتلكــه. وكم من عــالم في الـذرة من أبنـاء العـالم الثـالث - الإسـلامي بصـفة خاصة - قتل (في ظـروف غامضــة!) أو تحطمت به الطـائرة في الجــو! أو في القليل اشترى ليخدم مصالح الدولة التي تستخدمه!

وصحيح أنه لو ترك حـرا فـالأغلب أنه سـيبيع نفسه وعلمـه، لأن وطنه الأصـلي لن يلتفت إليه ولن يشـجعه على البحث، ولن يسـتثمر علمه وخبرتــه.. ولكن هــذا لا ينفي ســوء النية من الجــانب الآخــر، الجانب الذي إما أن يستثمر جهده لصالحه، أو ينفيه من الأرض!

أما الفســاد الخلقي والــروحي فخذ منه ما تسـتطيع، وفــوق ما تســتطيع.. بل هو أبــرز جــوانب العولمة في حقيقة الواقــع.. ترسخ أسسه كل يــوم: في الفضــائيات الــتي تبث كل رذيلــة. في منــاهج التعليم الــتي يطلبــون أن يحــذف منها كل ما يحافظ على مقومــات الأمة الذاتية، من دين أو أخلاق أو تقاليد أو مبادئ، وتقام المــؤتمرات لتنشر التمــرد على أوامر الله علانيــة، وتفــرض قراراتها فرضا على الناس، ويعاقب المعترضون بالحرمان من " رحمـة! " صـندوق النقد الدولي، أو غيره من مؤسسات الاستعباد!

أما " الديمقراطية " التي يمنــون بها " المســاكين " في العــالم الثالث، الرازحين تحت أنظمة الاستبداد السياسي فهي كــذلك داخلة في اللعبة!

فأما Laissez Faire (دعه يفعل ما يشاء) يلحد، ويعربد، ويفسق، ويـدمر الـتراث، ويهـدم الثـوابت، فهـذه تفتح لها أوسع الأبـواب في الديمقراطية المسـتوردة، ويحـرّض النـاس عليها بكل الوسـائل.. وسـائل الإعلام، ومنـاهج التعليم، وتعرية " المـرأة " في الشـارع والمقهى (الكازينو) والشاطئ والمكتب.. والمجلس!

وأما الحقـــوق والضـــمانات الحقيقية - وهي أثمن ما في الديمقراطية - فهذه غير قابلة للتصدير إلى العالم الثالث.. لأنها حكر على الرجل الأبيض.. ذلك لأنها لو استنبتت حقيقة في العـالم الثـالث فسيتحرر، ويسترد كيانه المفقود، ويعارض العولمة في النهاية، الـتي تستعبده للطاغوت العالمي.. ومن ثم فليأخذ مسرحياتها يتلهى بهـا.. أما حقيقتها فتظل منه بعيدة المنال!

* * *

إذا كان الأمر كذلك فالعجب للجماعات الإسـلامية الـتي تقـولب نفسها في قالب العولمة، أو في قالب " الديمقراطية " ظنًّا منها أنها بهذا الصنيع تكسب أرضا جديدة، أو تفلت من الحصار الواقع عليها!

أفبعد كل التجارب التي مضت ما تزال الخديعة قائمة؟!

أفلا يـذكرون أن أمريكا صـاحبة العولمة - أو اليهـود الـذين يسيّرونها - هي التي زرعت في العالم الإسلامي تلك الحكومات التي تذبّحهم وتقتّلهم وتشرّدهم وتضع شبابهم في المعتقلات والسجون؟

فما الـــذي ســـيتغير في خريطة الأحـــداث حين نعتنق نحن الديمقراطية التعددية، ونجعلها شـعارا لنـا، نعلنـه، وننـادي بـه، ونؤكد عليه، ونقسم بأغلظ الأيمان أننا سنتبعه؟!

هل سـيمنحنا هـذا شـيئا من الحقـوق المسـلوبة أو الضـمانات المطلوبة؟ أليس صـاحب العولمة هو ذاته الـذي يحـرض الحكومـات على مقاومة التيار الإسلامي وكبته ومحاولة القضاء عليه؟! فما الذي سـيتغير حين نعلن نحن أنفسـنا ديمقراطـيين تعـددين؟! وما حصـيلة تجربة الجزائر، وتجربة حزب الرفاه في تركيا؟!

إننا لا نـدعو إلى العنـف.. ونعلن بملء أفواهنا أننا لا نجـيزه، ولا نعتقد أنه يفيد الدعوة، بل نقول إنه مخالف للمنهج النبـوي، وإنه يضر الدعوة ولا ينفعها [1].

[1] انظر ان شئت كتاب " واقعناالمعاصر" وكتاب "كيف ندعو الناس"

ولكنا نقول مع ذلك إن تحكيم شريعة الله إلـزام ربـاني، لا خيـار للبشر في تركه أو الإعراض عنه إذا أرادوا أن يكونوا مسـلمين: **(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُــونَ حَتَّى يُحَكِّمُــوكَ فِيمَا شَــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)** [1]. **(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)**[2].

وليس بيننا وبين الديمقراطية - كتنظيم سياسي - خصـــــومة ذاتية، وإنما الخصومة هي من جانبهم، لأنهم يرفضون الالتزام بتحكيم شــريعة اللــه! فهل يصل الأمر بــأي حركة إســلامية أن تقبل وضــعا يرفض تحكيم شريعة اللـه، وتمنحه شـرعية الوجـود؟! وحين نتنـازل عن هذا الإلزام الرباني، فماذا يبقى لنا من الإسلام؟! وحين لا نتنـازل - ولا خيار لنا في عدم التنازل - ترفضنا الديمقراطية ولو تمسـحنا بها ألف عام!!

ثم إن هناك وهمًا لا بد من التنبيه إليه!

إن الديمقراطية - أو قل على وجه التحديد إيجابياتها من ضمانات وحقوق - ليست جهازا يستورد، فيوصل بالــدائرة الكهربائية فينتج من ذات نفسه حقوقا وضمانات!

إن الديمقراطية التي يسـتمتع بها الغـرب اليـوم بإيجابياتها (ودع عنك مؤقتا ســـلبياتها) عمرها مائتا عـــام على الأقل من الكفـــاح المتواصل، قـدمت فيه الشـعوب ضـحايا عديـدين من أبنائهـا، قتّلـوا، وشرّدوا، وسجنوا، وحوربوا بكل وسائل الحرب، حتى اســتطاعوا في النهاية أن يحصـــلوا على ما تشـــتمل عليه الديمقراطية من حقـــوق وضمانات، وإن كانوا لم يستطيعوا قط أن يتغلبـوا على سـلبياتها لأنها - عندهم - سبيكة واحدة اختلط فيها الحق والباطل.

فهل سنصل نحن إلى ما وصلوا إليه من حقوق وضمانات بمجرد أن نعلن أنفســنا ديمقراطــيين؟! أم لا بد من تربية الأمة لكي تحافظ على حقوقها وترفض الاعتـداء عليهـا، كما تـربت الأمم الـتي وصـلت إلى ما وصلت إليه من خلال كفاحها ونضالها وتضحياتها؟!

وإذا لم يكن من التربية بـــد، وهي عمل مجهد مُضْــــن بطيء الثمـرة وإن كـان أكيد المفعـول، فهل الأجـدر بنا نحن المسـلمين أن

---

1 [2] سورة النساء (65)

2 [3] سورة الأحزاب (36)

نبـــذل جهد التربية في أمر يختلط فيه الحق والباطـــل، أم في الأمر الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الإسلام؟!

في كلا الحـالين سـنبذل الجهـد، ونصـبر على اللأواء، ولكنا في إحدى الحـالين نحـرز متـاع الـدنيا (وهو مشـوب)، ونحـرز غضب الله بالإعراض عن شريعته، وفي الحالة الثانية نحرز متاع الدنيا ورضـوان الله.

(وَعَـــدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـــوا مِنْكُمْ وَعَمِلُـــوا الصَّـــالِحَاتِ لَيَسْـــتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـــتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَـى لَهُمْ وَلَيُبَـدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْـدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً) [1].

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ يُدْخِلْـهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ) [2].

* * *

إن الحركة الإسلامية تملك الكثير..

فبدلا من أن تقولب نفسها في القالب الذي يريـده لها أعـداؤها، فترسّـخ بـذلك كيد أعـدائها لهـا.. بـدلا من ذلك عليها أن تـبرز البـديل الغائب، وتعرض النظام العالمي الصحيح.

الإسلام هو النظام العالمي الصحيح. سواء بالنسبة لمعتنقيه، أو بالنسبة " للآخر " الذي لم يعتنق الإسلام.

فإذا كانت السمة الكـبرى للعولمة هي القهر والإلـزام والضـغط على المستضعفين ليخضعوا لسلطانها. فإن السمة الكـبرى للإسـلام أنه لا يكـره أحـدا على اعتناقـه: **(لا إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ..)** [3]، **(... أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)** [4]؟!

وإذا كانت السمة البارزة للعولمة هي فرض قالب معين للحيـاة - هو القالب الأمريكي - ليتقـولب النـاس في داخله قسـرا، ولو كـان مقاسـهم مختلفا عن مقاسـه، فتتم قـولبتهم ببـتر بعض أعضـائهم أو تحطيمها، فإن الإسـلام - دين الله - يقر الاختلاف كـأمر واقـع، فرضه الله في الخليقة لحكمة يريدها: **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً**

---

1 (1) سورة النور (55)

2 () سورة النساء (13)

3 () سورة البقرة (256)

4 () سورة يونس (99)

وَاحِـــدَةً وَلا يَزَالُـــونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِـــذَلِكَ خَلَقَهُمْ...) [1].

إنما يلــزم الإســلام معتنقيه بثــوابت معينة ومعــايير معينة يعلم الحكيم الخبـير أنها لازمة لتكـوين الإنسـان الصـالح، الـذي يصـلح أن يكون خليفة في الأرض: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً)** [2]. **(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَـاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...)** [3].

ولكنه - حــتى مع معتنقيه - لا يجعلهم نســخا مكــررة كــالآلات. والــدليل الــواقعي هو اختلاف المــذاهب واختلاف الآراء، الــذي أقرته الأمة منذ يومها الأول، ولم تضق به، ولم تضيق عليه، إنما تضيق على الذين يخرجون على الثوابت بحجة الحرية الشخصية أو حجة الاجتهاد أو غيرها من المعــاذير للتفلت من دين اللــه.. فهــؤلاء حكم الله فيهم أنهم مرتدون.

أما غــير معتنقيه فــإن كــانوا يعيشــون على أرضه وتحت رايته " فلهم ما لنا وعليهم ما علينا " وإن كانوا خارج أرضه وخــارج ســلطانه فإن كانوا محاربين يحاربون، وإن كانوا مسالمين يعاهدون، ويعاملون بالقسط: **(لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الــدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِــطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَـاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْـرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** [4].

وإذا كــــانت العولمة حصــــيلتها الحقيقية النهائية اســــتعباد المستضعفين لسلطانها، تحت أي عنوان وتحت أية معاذير، فالإسلام هو الــذي جعل عمر - رضي الله عنه - يقــول لأحد ولاتــه: يا عمــرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

إنما قبل ذلك كلــه، وفــوق ذلك كله أنه إذا كــانت العولمة تصـدّر للنـــاس الإلحـــاد والفســـاد الخلقي والفوضى الجنســـية والشـــذوذ والانحراف، وتفرضه في " مؤتمرات! " عالمية، فالإسلام حريص كل

---

[1] سورة هود (118 - 119)

[2] سورة البقرة (30)

[3] سورة ص (26)

[4] سورة الممتحنة (8 - 9)

الحرص على تطهير الناس من الدنس الروحي والأخلاقي، ليرتفع الناس إلى المستوى اللائق " بالإنسان ".

إن التقدم العلمي والتكنولوجي والتنظيمي لا علاقة له البتة بالانحلال الخلقي، وليس من مستلزمات ذلك التقدم أن تفسد أخلاق الناس وينحطوا إلى الدرك الحيواني كما هو حادث في " الحضارة " الغربية! إنما حدث ذلك عندهم - كما أسلفنا - لظروف محلية خاصة في حياتهم، ليس لها طابع العموم، ولا هي من السنن التي لا تحيد ولا تتبدل!

وقد أعطى الإسلام - وقت استمساك الناس به على الوجه الصحيح، أو قريبا من الصحيح - حضارة إنسانية متقدمة في جميع الميادين، دون تبذل خلقي ولا انتكاس روحي، بل كان المجتمع الإسلامي أقل المجتمعات البشرية وقوعا في الفاحشة، وأقلها إدمان خمر، وأقلها إدمان مخدرات، وأقلها جرائم، وأكثرها صلاة وعبادة، وأكثرها ترابطا أسريا، وأكثرها طمأنينة، وأكثرها بركة!

* * *

والإسلام - بصورته الحقيقية - ليس موجودا اليوم إلا في الأفراد الذين يمارسونه عن إيمان واع بحقيقته. أما الغثاء الذي أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم - بصرف النظر عن وضعه في حكم الله (وتلك قضية لا نتعرض لها) - فالإسلام غريب عنه كما أخبر الصادق المصدوق:

" بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء " [1].

ومهمة الغرباء - كما جاء في رواية الترمذي - أن يصلحوا ما أفسد الناس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتلك مهمة الحركات الإسلامية..

ليست مهمتها أن تتقولب في قالب العولمة لكي تعيش! فذلك نداء أعدائها ليقضوا عليها في النهاية ويتخلصوا منها!

والإسلام لم يتنزل ليجاري انحرافات البشر، وإنما ليصححها ويهيمن عليها.

---

[1] أخرجه مسلم

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) [1].

ولكي يعود الناس إلى الإسلام على وجهه الصـحيح، أو قريبا من الصـــحيح، يحتـــاجون إلى جهد جاهد يبـــذل في التربية على حقيقة الإسلام.. جهد مجهد مُضْنٍ ولكنه أكيد المفعـول، ولو اسـتغرق تمامه عدة أجيال.

ولن تـتربى الأمة على حقيقة الإسـلام بكتـاب ينشـر، أو موعظة تلقى، أو خطبة حماســية في مزايا الإســلام، وإن كــان هــذا كله من الأدوات الضرورية للدعوة..

إنما يــتربى النــاس بالقــدوة أولا، ثم بالموعظة الصــادرة عن القدوة، الـتي تجد صـداها في القلـوب حين تصـدر عن قلـوب مؤمنة بالفعــل، ملتزمة بالفعــل، ممثلة له في سـلوكها الـواقعي، داعية إلى الله على بصيرة: **(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِـيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** [2].

ومن أجل ذلك تحتاج الحركات الإسـلامية أن تكـون هي ذاتها قد ترتبت على حقيقة لا إله إلا الله، ومقتضيات لا إله إلا اللــه، لتسـتطيع أن تنقل للنـــاس تجربة حية ماثلة في عـــالم الواقـــع، يراها النـــاس فيقتدون بها حين يُـدْعَوْن إليهـا.. وذلك ما سـميناه " إنشـاء القاعـدة الصلبة " التي تقوم فيما بعد بدعوة الناس [3]..

ولن تجد الحركات الإسلامية السبيل ميسرا إلى أي الهدفين، بل سـتجد العراقيل من كل جـانب، وتجد المعوقـات.. ولكن هـذا قـدرها الذي قدره لها الله: **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُــونَ وَلَقَـدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)** [4].

ولكن الهـدف المقصـود من الضـخامة بحيث يسـتحق كل جهد يبذل فيه، فوق أنه عبادة خالصة لله.

الهدف في النهاية - ولو اسـتغرق تمامه عـدة أجيـال - هو إبـراز النموذج الحضاري الصحيح، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور..

---

[1] سورة المائدة (48)

[2] سورة يوسف (108)

[3] انظر إن شئت كتاب "كيف ندعو الناس"

[4] سورة العنكبوت (2 - 3)

(**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) [1].

* * *

إن النموذج الحضاري القائم اليوم يشكل فتنة كبيرة للناس.. ففيه من ألوان التقدم ما هو نافع حقيقة للناس، ولازم لهم ليرتفع مستواهم الحياتي، وفيه في الوقت ذاته انتكاسات روحية وخلقية تهبط بالناس إلى درك أحط من الحيوان.. والناس - لهبوطهم إلا من رحم ربك - يأخذون الأمرين معاً، على أنهما - معا - هما التقدم والرفعة والرقي!! ومن أجل ذلك لا يحسون في لحظة الانتكاس أنهم منتكسون، بل يظنون أنهم ماضون في طريق الرفعة ما داموا يمارسون ألوان التقدم التي تتيحها هذه الحضارة..

ولن يفصل الناس بين الخير والشر في هذه الحضارة، فيستبقوا الخير ويستزيدوا مه ويسعوا إلى التخلص من الشر، بكتاب ينشر، أو موعظة تلقى، أو خطبة حماسية.

إنما يحتاجون إلى نموذج واقعي، يحقق ما في هذه الحضارة من خير - أو في القليل لا يعوقه عن الإنطلاق في طريقه - وفي الوقت ذاته يتطهر من الدنس المتمثل في الإلحاد من ناحية، والفوضى الجنسية والانحراف والشذوذ من ناحية أخرى.. فيتبعوا النموذج على هدى وبصيرة، وعن رضىً وارتياح.

وحين يحدث ذلك تكون البشرية قد ارتفعت بالفعل، الرفعة الحقيقية التي تحقق كيان " الإنسان "..

فمن يرشد البشرية إلى ذلك إلا الذين يملكون المنهج الصحيح، والذين كلفوا تكليفا بإبلاغه للناس؟!

* * *

إن الرد الحقيقي على الطاغوت الحالي الذي يسمى العولمة، هو إبراز النموذج الصحيح الذي يجب أن يكون عليه الإنسان، لكي يصدق الناس - في عالم الواقع - أنه يمكن أن يتقدم الإنسان علميا وتكنولوجيا واقتصاديا وحربيا وسياسيا وهو محافظ على إنسانيته، محافظ على نظافته، مترفع عن الدنايا، متطهر من الرجس، قائم

---

[1] سورة آل عمران (104)

بالقسط، معتدل الميزان: **(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..)**[2].

وبدهي أن المسلمين لن يستطيعوا في يـوم وليلة أن يتجـاوزوا التخلف العلمي والتكنولوجي والاقتصادي الذي وقعوا فيه حين بعـدوا عن حقيقة الإسلام، وأن ذلك - حتى إن بدأوه اليوم - سيستغرق عدة أجيـال، وسـيظل الفـارق بين المتقـدمين والمتـأخرين قائمـا، بل قد يزداد اتساعا مع كل قفزة جديدة يقفزها العلم..

ولكنهم إن استكانوا لهذا العجز فقعدوا عن تغيـير أحـوالهم فلن يفلحوا إذن أبدا!

وليعلمـوا أن الـذي تحتـاج إليه البشـرية اليـوم ليس مزيـدا من الإنتاج المادي، ولا مزيدا من أسلحة الدمار الشامل.. إنما تحتـاج إلى شـيء أهم من ذلك بكثـير، وأنفع من ذلك بكثـير: هو طمأنينة القلب وصفاء الروح.

وحين يقـدم لهم المسـلمون ذلـك، مع علمهم الحـثيث لتلافي تخلفهم الذي هم واقعون فيه، يكونون قد قـدموا لهم خدمة لا توازيها خدمـة، لأنها هي الـتي سـتنقذهم من الـدمار، وفي الـوقت ذاته فـإن الإسلام لن يسـلبهم تقـدمهم المـادي الـذي هم عليه حريصـون، فلم يكن الإسـلام قط عـدوا للتقـدم العلمي أو المـادي، إنما كـان عـدوا للخلل الـذي يحـدث في حيـاة النـاس حين ينسـون ربهم وينسـون آخرتهم ويستحبون عليها الحياة الدنيا، فينتهي أمرهم - حسب السنن الربانية - إلى الدمار..

* * *

والآن نعود إلى السؤال الـذي بـدأنا بـه: مـاذا يملك المسـلمون إزاء الطاغوت الكاسح الذي يواجههم؟

فأما مجموع الأمة فيملكون أضـعف الإيمـان، وهو إنكـار القلب، وهو فرض عين عليهم لأنه ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل..

وأما الحركة الإسلامية فتملك المشروع الطويل الأجل، الذي قد يستغرق عدة أجيال، ولكن يجب أن تجند نفسها له منذ اللحظـة، وهو عليها فرض عين.. ذلك هو إعادة الأمة **بالتربية** إلى حقيقة الإسـلام، لتقـدم النمـوذج الحضـاري الـذي يسـاعد النـاس على الخـروج من الظلمات إلى النور.

---

2 (2) سورة الحديد (25)

موقف العلمانيين

يبــدي العلمــانيون ترحيبا ظــاهرا بالعولمــة، ويرتقبونها بفــارغ الصـبر، ويبشــرون بــالخير العميم الــذي سـيهب علينا من العولمـة، ليخرجنا من التخلف إلى الحداثة.. ولا يخفي بعضــهم فرحته بأنها هي التي ستزيل من حياتنا بقايا " القرون الوسطى " التي ما تزال عالقة بنا..

بعبارة أخرى تزيل لهم الإسلام!!

هكذا يفكرون.. وهكذا يحلمون..

ويعجب الإنسان لهـذا المسخ الشـائه الـذي يقـرأ تاريخه بعيـون غيره، ويزن نفسه بميزان غيره، ويتلاشى هو حتى يصير كأنه غيره!

لقد كانت القرون الوسطى في أوربا هي قرون الظلام.. وقُـرِنَ هذا الظلام - بجهالة - بالدين، من حيث هو دين! فقيل إن أوربا كانت تعيش في الظلام لأنها كانت تعيش في ظل الدين، وحين نبذت الدين تقدمت وارتقت وخرجت من الظلام إلى النور..

ونحن نعلم جيــدا أن عصر التــدين في أوربا كــان عصر الظلام، وأن أوربا تقدمت حين نبذت دينها. ولكنا جـديرون أن تكـون لنا رؤيتنا الواضـحة لهـذا الأمــر، بما نملك من المعــايير الــتي لا تملكها أوربــا، وبكوننا ونحن خــارج الــدائرة - أو خــارج الأزمة - أقــدر على الرؤية الشـاملة الـتي قد لا يقـدر عليها الموجـودون في داخلهـا، المتـأثرون بأفعالها وردود أفعالها، الواقعون تحت ضغوطها وانفعالاتهـا، الـتي قد تغشي النظرة وتفسد الرؤية.

إن أوربا لم تعــــرف في تجربتها - قط - دين الله المــــنزل! إنما عرفت دينا صنعته تصورات بشرية ضـالة، أفسـدت منه ما أفسـدت، ثم أفسدت به ما أفسدت!

وعرفت كيانا كهنوتيا مبتدعا ما أنـزل الله به من سـلطان، طغى وتجبر حين واتته الفرصة، ففرض على الناس طغيانا روحيــا، وطغيانا ماليا، وطغيانا عقليـا، وطغيانا سياسـيا، وطغيانا عليمـا، حَـوّل الحيـاة إلى جحيم لا يطـــاق، ومع ذلك أطاقته أوربا ما يقــــرب من عشــــرة قــرون، ولم تــدرك ما فيه من الزيــف، وما فيه من الإجحــاف بكيــان الإنسان إلا بعد أن احتكت بالإسلام والمسـلمين كما أشـرنا في فصل سابق.

وعندئذ انقلبت أوربا مائة وثمانين درجة كاملة.. فألّهت الإنسـان بدلا من الله، وانكبت على الحياة الـدنيا بـدلا من التوجه إلى الآخـرة، وحكّمت العقل في الأمور كلها بدلا من مقولات الدين، أي المقـولات التي كانت تقولها الكنيسة باسم الدين..

وأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء!

ولكن الرؤية المسـتقيمة، غـير المتـأثرة بانفعـالات المعركـة.. الرؤية " العقلانية " الصـحيحة.. والرؤية " العلمية " المتثبتـة، كـان ينبغي أن تدرس وتحلل وتنظر في الأسباب والنتائج، فتكشف حقـائق الأمـر، الـتي قد يغيبها الانفعـال الثـائر، أو رغبة الثـأر والانتقـام من طغيان الكنيسة.

ففي الفترة ذاتها التي عاشتها أوربا في ظلماتها، كان هناك نـور ساطع مشـرق متـألق، منبثق من الـدين.. ولكن من الـدين الصـحيح الذي لم تفسده التصورات الباطلة، والذي ليس له كهنوت ولا رجـال دين يفرضـون على النـاس ما يفرضـون، ويحرقـونهم أحيـاء حين يرفضون!

ومن الحق أن نـذكر - كما ذكرنا من قبل - أن أوربا كـانت قد أوشكت أن تـدخل في هـذا الـدين، لـولا عنف الكنيسة في محاربتـه، ومحاربة تأثيراته في نفوس الأوربيين وأفكارهم.

ولكن الحصـيلة النهائية على أي حـال كـانت نبذ الـدين جملة وإقصـاءه عن الهيمنة على واقع الحيـاة، أو - في أحسن الأحـوال - تحجيمه حتى يصـبح علاقة خاصة بين العبد والـرب، مكانها القلب، ولا صلة لها بواقع الحيـاة السياسي أو الاقتصـادي أو العلمي أو الأخلاقي أو الفكري أو الاجتماعي... إلخ.

مرة أخرى نقول إن أوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء!

أما العلمانيون الذين يحملون أسماء إسـلامية فما الـذي دهـاهم حـتى صـاروا يتصـايحون بما صـاحت به أوربا من قبـل، ويفـرون من الدين، ويدعون إلى الفرار منه كما فـرت أوربا من قبـل، ودينهم غـير ذلك الدين، وظروفهم غير تلك الظروف؟!

إنسـان يعـرج لأن في قدمه شـوكة تؤلمه إذا اتكأ عليهـا، فيـأتي إنسان سـليم القـدمين فيقـول: أريد أن أعـرج مثل هـذا الرجـل، لأن عرجته تعجبني!!

ما علينا!

إنما نتحدث هنا عن الفرحة الغامرة التي يتحدث بها العلمــانيون عن العولمة، والترحيب الحار الذي يستقبلون به أنباءها، والبُشْــرَيات التي يبثونها بالخير الذي سوف يغمرنا من جرائها!

(**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**) [1].

من أشد ما يستبشرون به - كما صرح متحدثون منهم - القضــاء على الدين!

ولو قــالوا إن الواقع الــذي تعيشه الأمة اليــوم واقع ســيئ غاية السـوء، في جميع المجـالات، وإنه لا بد من إصـلاحه، لاتفقنا معهم بلا نزاع، فنحن لا نفتأ نردد هذه الحقيقة في كل مناسبة..

أما موضع الخلاف الجذري بيننا وبينهم فهو نظرتهم إلى الســبب في هذه الحال، وبالتالي نظرتهم إلى طريقة العلاج. فهم يقولــون إن " الـــدين " هو الســـبب في البلاء كلـــه، وإن العلاج هو نبذ الـــدين أو تحجيمه - كما فعلت أوربا - ونحن نقول إن البعد عن حقيقة الدين هو السبب في البلاء كله، ومن ثم فـالعلاج هو العـودة الصـادقة إلى هـذا الدين.

ونحن هنا لا نناقشـــهم في آرائهم [2].. إنما ننـــاقش فـــرحتهم واستبشارهم.. هل هي قائمة على أساس حقيقي؟ أم هم يحلمــون؟ أم هم يتمنون ثم يصدقون أمانيهم؟!

هل ستقضي العولمة حقيقة على المد الإسلامي؟!

نـــرى نحن على العكس، أنها ســتكون ســببا قويا من أســباب انتشار الصحوة الإسلامية في كل الأرجاء!

(**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**)[3].

من زمن بعيـد، في أوائل الخمسـينيات من هـذا القـرن، ألقى " توينــبي " المــؤرخ البريطــاني الشــهير محاضـرة بعنـوان " الإسـلام والمستقبل " قال فيها: إن الإسلام الآن نائم نومة أهل الكهف. ولكن النــائم قد يســتيقظ إذا وجــدت دواعي اليقظــة. وقد أثبت الإســلام وجوده القـوي مـرتين تـاريخيتين من قبـل، الأولى حين اكتسح نصف

---

1 () سورة الزمر (45)

2 () ناقشنا هذا الأمر تفصيلا في كتاب "قضية التنوير في العالم الإسلامي"

3 () سورة الصف (8 - 9)

الإمبراطورية الرومانية في سـنوات قلائـل، والثانية حين تغلب على الصـليبيين في القـرون الوسـطى. واليـوم توجد شـعوب بروليتارية (يقصد الشعوب المستذلة الخانعة للإذلال، التي لا تثور ضده، ويقصد بها شعوب " العالم الثالث ") يسـتغلها الغـرب ويضـغط عليهـا، فـإذا اشتد الضغط فسوف تتحرك هذه الشعوب لتسترد كيانها المسـلوب، وعندئذ قد يجد الإسـلام الفرصة لـتزعّم هـذه الحركـة، وقيـادة هـذه الشعوب في صراعها مع الغرب.. وفي الأخير قال: ونرجو ألا يحـدث ذلك!!

ولكن الـذي كـان يخشـاه توينـبي، ويرجو ألا يحـدث، قد حـدث بالفعـل، وقـامت الصـحوة الإسـلامية على الـرغم من كل الحـرب المصبوبة عليها، أو ربما بسبب هذه الحرب!

واليوم تأتي العولمة لتشعل الموقف!

إن العولمة هي أسوأ صورة من صـور الاسـتعمار عرفتها الأرض حتى اليوم.. صورة عاتية غاشمة لا تريد فقط سلب أقوات الشـعوب واستغلالها، إنما تريد محو شخصيتها، وتحويلها إلى أتباع وعبيد.

ورد الفعل المتوقع - ولو بعد فـترة من الـوقت - هو ثـورة هـذه الشـعوب لكيانها المسـلوب، وتحركها لاسـترداد ما سـلب منها من خامات وأموال، وكرامات وعقول وقلوب..

وسيكون الإسلام هو قائد حركة التحرير!

ولا شك في أن العلمـــانيين سيضـــحكون ملء أفــــواههم، وسـيقولون لنـا: إنكم تحلمـون، ثم تصـدقون أحلامكم. فقد جـاءتكم الكاسـحة الماسـحة الـتي لا تبقي ولا تـذر، ولا طاقة أمامها لأحد من البشـر! فضلا عن الضـعاف المهازيـل، الرجعـيين المتخلفين، الـذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى في عصر التنوير!

ونقول نحن إنا واقعيون جدا، بصرف النظر عما تتمناه النفوس، فـالنفوس دائما تتمـنى ما تـرغب، ولكن بعض النـاس يتمنـون وهم يحلمون، وآخـرين يتمنـون وهم واقعيـون، يعرفـون مواقع أقـدامهم، ويدركون عقبات الطريق.

ولنأخذ واقعة معينة، ولنستخرج منها دلالتها..

تلك الواقعة هي رواية " وليمة لأعشاب البحر "..

لقد كانت أمنية الـذين قـاموا بإعـادة نشـرها، أن يصل المجتمع إلى الحالة التي يُسَـبّ فيها الله ورسـوله، ويُهـزأ بدينـه، ويُسـخر من مفاهيمه ثم لا يتحرك!

ولكنهم - بحماقة - تجاوزوا الخطوط الحمراء!

وعندئذ وقعت الواقعة الـتي لم تـدر بخلد أحـد، ولم تخطر على البـال، فـانفجر المكبـوت الـديني كلـه، وتحـرك من لم يكن يُتَوقع أن يتحرك، واستنكر حتى من لم يكن يُتوقع أن يستنكر!

تلك الواقعة لها دلالتها..

فقد أوغل العلمانيون في مهاجمة الدين زمنا، والناس سـاكتون. وأغراهم سكوت الناس فزادوا إيغالا، مستندين إلى القوى التي تقدم لهم الحماية وهم يهاجمون الدين..

ولكنهم كانوا - في أبراجهم العاجية - يعالجون " قضايا " يختلط فيها الحق والباطـل، و ينفعل بها ولا لها إلا فريق محـدود من النـاس، وإن كانت في عمومها تثير اشمئزاز الناس واستنكارهم.

أما حين مس الأمر ما هو " معلـوم من الـدين بالضـرورة " من تقديس لله سبحانه وتعالى، وتوقير للرسول صـلى الله عليه وسـلم، واحترام للـدين المـنزل من عند اللـه.. فعندئذ انفجر المخـزون كلـه، رغم كل المخاطر التي كانت تحيط بالانفجار!

والعولمة ترتكب ذات الحماقة..

تتجاوز الخطوط الحمراء!

وفي المـؤتمرات الـداعرة الـتي تـدعو إلى الفوضى الحيوانيـة، وتدعو إلى إعطاء الشرعية للفسق والفجـور والشـذوذ والانحـراف.. يتجاوز " المتآمرون " الخطـوط الحمـراء، ويمسـون ما هو " معلـوم من الفطرة بالضرورة " فينفجر المخزون!

وذلك فضلا عن الضـغط الاقتصـادي والضـغط السياسي الـذي يصاحب العولمة، ويؤدي في النهاية إلى الانفجار..

إن العولمة - سـواء كـانت أمريكية بحتـة، أو يهودية بحتـة، أو خليطا متجانسا متعاونا من الأمريكية واليهودية - تعمل - بحماقة - ضد مصالحها في نهاية المطاف!

مستقبل العولمة

الغيب لله..

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [1].

ولكن هناك سننا ربانية تجري في حياة البشر، وهي سنن لا تتخلف ولا تتبدل، وهناك وعد ووعيد من عند الله، لا يتخلفان كذلك، وهناك واقع مشهود، يمكن رؤيته وتقدير احتمالاته على ضوء تلك السنن، وذلك الوعد والوعيد..

وكلها تقول إن هذه العولمة، سواء كانت - كما قلنا في نهاية الفصل السابق - أمريكية بحتة، أو يهودية بحتة، أو خليطا متجانسا متعاونا من الأمريكية واليهودية، لن تعيش طويلا كما يتمنى أصحابها!

إنها بادئ ذي بدء مخالفة لقدر مسبق من أقدار الله، ألا يكون الناس أمة واحدة على الإيمان أو على الكفر: **(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)** [2]. **(.. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ..)** [3].

فكل محاولة لصبغ الناس كلهم صبغة واحدة، تفرضها القوة الغاشمة، هي محاولة فاشلة منذ البدء، وإن قدّر لها شيء من النجاح في بعض أرجاء الأرض لفترة محدودة من الزمان.

فاشلة لأنها مخالفة لإرادة ربانية أزلية، والله هو الذي يقدر المقادير، وليس البشر، وإن ظنوا في لحظات غرورهم وتألههم أنهم قادرون!

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ) [4]. **(.. أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا**

---

[1] سورة النمل (65)

[2] سورة هود (118 - 119)

[3] سورة المائدة (48)

[4] سورة فصلت (15 - 16)

نَـــأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُـــهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَـــالِبُونَ) [1].

(أَوَلَمْ يَــرَوْا أَنَّا نَــأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُــهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [2].

وهي فاشلة ثانيا لأنها مخالفة لسنة أخـرى من سـنن اللـه، وهي مداولة الأيـــام بين النـــاس (بمعـــنى النصر والهزيمـــة، والتمكين والزوال).

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَـوْمَ قَـرْحٌ مِثْلُـهُ وَتِلْـكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)[3].

ثم إنها - في الواقع المشـــهود الآن - تجد مجابهة ومعارضة في أكثر من مكـان! ففرنسا وألمانيا في أوربا تسـتنكفان أن تصـوغ لهما أمريكا طريقة حياتهمـــا، وتقفـــان بشـــدة أمـــام كل محاولة لمحو شخصـيتهما، وطبعهما بطـابع غـير طابعهما الـذاتي، سـواء في عـالم اللغة أو الفكر أو الثقافة أو السـلوك اليـــومي، فضلا عن السياسة والاقتصاد.

وفي آسـيا توجد الصـين واليابـان، وكلتاهما قـوة راسـخة في الأرض، لا يسهل محوهـا، ولا إخضـاعها، ولا طمس معالمهـا، ولا إذابة شخصيتها كما تشتهي العولمة.

وذلك فضلا عن الحركة الإسـلامية، المكبوتة الآن بكل وســائل الكبت، ولكنها حية تستعصي على كل محاولة لوأدهـــا، أو منعها من الانتشار.

* * *

وعلى فــرض أن العولمة أمريكيــة، فأمريكا ذاتها مهــددة - من داخلها - بالانهيـار! ولسـنا نحن الـذين نقـول ذلك إنما تقوله صـحفهم وكتابهم ومفكروهم.

حقا إن القوة المادية لأمريكا من الضـخامة بحيث يصـعب حـتى على القـوى العالمية الأخـرى مجاراتها أو التصـدي لهـا، ولكن القـوة المادية ليست هي في النهاية التي تقـرر مصـاير الأمم، أو على الأقل ليست وحدها التي تقرر مصـايرهم.. وحين يتفشى الـترف، ويتفشى الترهل (مما نبه إليه كلنتون ذاته في كلمات وجهها إلى شعبه) وحين تتفشى الفوضى الجنسـية والشـذوذ والانحـراف، ويتعـالن الشـواذ

[1] سورة الأنبياء (44)

[2] سورة الرعد (41)

[3] سورة آل عمران (140)

بشــذوذهم ويطلبــون من دســتورهم وبرلمــانهم أن يقر بشــرعيتهم وشــرعية ســلوكهم المنحــرف.. وحين تتفشى الخمر والمخــدرات والجريمة.. فكل ذلك من عوارض الدمار، مهما كانت القوة المادية..

ولسنا نقـول إن أمريكا سـتنهار غـدا صـباحا! فـإن ما لـديها من عوامل القوة الإيجابية يمكن أن يمد لها فترة من الزمن بحسب سـنة الله. ولكنا نقول - فقط - إن هذا الأمر لا يتوقع كثيرا أن يطول.

وأما إن كــانت العولمة يهوديــة، تعمل من خلال أمريكــا، وهو الأرجح في نظرنا، فلليهود في كتاب الله وعد ووعيد: **(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْــرائيلَ فِي الْكِتَــابِ لَتُفْسِــدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَــرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَـاداً لَنَا أُولِي بَـأْسٍ شَـدِيدٍ فَجَاسُـوا خِلالَ الـدِّيَارِ وَكَـانَ وَعْـداً مَفْعُــولاً ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَــرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْــدَدْنَاكُمْ بِــأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْـدُ الْآخِـرَةِ لِيَسُـوءُوا وُجُـوهَكُمْ وَلِيَـدْخُلُوا الْمَسْـجِدَ كَمَا دَخَلُـوهُ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَـوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا...)** [1].

ويستوي - كما أشرنا من قبل - أن تكـون المرتـان المـذكورتان تــاريخيتين، أو تكــون إحــداهما تاريخية والثانية هي الواقعة اليــوم.. فقوله تعـالى: **(وَإِنْ عُـدْتُمْ عُـدْنَا)** فيه الفيصل فيما نحن بصـدده. فالآيات تقول إنه كلما علا اليهود في الأرض وأفسدوا - سواء مـرة أو مـرات - جـاء العقـاب الربـاني فـأنزلهم من علـوهم وأجـرى عليهم وعيـده: **(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ)** [2].

وهم اليوم في قمة العلو.. ولم يسـبق لهم في تـاريخهم كله أن علوا وسيطروا بمقدار ما لهم اليـوم من العلو والسـيطرة في أرجـاء الأرض.

والله هو الـذي يقـدر، وله حكمته في تقـديره سـواء عرفنا نحن الحكمة أم لم نعرفها.

---

[1] سورة الإسراء (4 - 8)

[2] سورة الأعراف (167)

وله حكمة ولا شك في الإملاء لليهـــــــود وتمكينهم في الأرض: **(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْـلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْـلٍ مِنَ النَّاسِ..)** [1].

فهم ممكنون بحبل من الله ابتـداء، أي بتقـدير من الله وإمـداد، ثم بحبل من الناس الذين يعينونهم على تنفيذ مخططاتهم.

أما الحكمة في ذلك فلا نعرفهـا، لأنها ليست مـذكورة في كتـاب الله ولا في حديث الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، ولكن ربما كـان الله يعـاقب البشـرية الـتي كفـرت اليـوم كفـرا لم تكفـره من قبـل، فأنكرت وجود الله (في جزء غير قليل منها) وشــردت عن هديه (في الجـزء الأكـبر منهـا) ويعـاقب الأمة الإسـلامية بالـذات على تفريطها وتقاعسها.. يعاقب الجميع بتسليط اليهود عليهم تحقيقا لقوله تعالى: (قُلْ هُـوَ الْقَـادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـذَاباً مِنْ فَـوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) [2].

وأيًّا تكن الحكمة فالــذي يهمنا هنا أن هــذا العلو والإفســاد في الأرض محــدود بــزمن معين يقــدره اللــه، وليس طويل الأمــد، لأنه استثناء من القاعدة، وليس هو القاعدة، وإن تكن القاعدة من تقــدير الله، والاستثناء كذلك من تقدير الله..

* * *

وليس معــنى هــذا كله أن العولمة أمر هين ولا خطر منــه، ولا يستأهل منا اهتماما ولا حركة..

إنه عاصفة جائحة هوجاء..

والعاصــفة تهــدأ بعد حين، ولكنها تكــون قد دمــرت ما دمــرت، وخربت ما خربت، مما قد يحتاج في إصلاحه إلى عشرات السنين..

وإنما نقول للناس في العالم الإسلامي تحصنوا قــدر الطاقة من العاصفة الهوجاء. تحصنوا أولا بالتمسك بــدينكم وأخلاقكم وثــوابتكم، ثم تحصنوا ثانيا ببذل أقصى الجهد في تحصــيل العلم والتقنية وزيــادة الإنتاج، لعلكم بذلك تقللون آثار الدمار الذي تخلفه العاصفة.

ثم نقول لهم كما قال موسى عليه السلام لقومه وهم في أتــون الابتلاء: **(اسْــتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْــبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)** [3].

---

[1] سورة آل عمران (112)

[2] سورة الأنعام (65)

[3] سورة الأعراف (128)

الفهرس

هذه دعوتنا

- دعــوة الى الهجــرة إلى الله بتجريد التوحيــد، والــبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسـوله صـلى الله عليه وسـلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصـدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار مــوالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعــوة إلى تحقيق التوحيد بجهـاد الطـواغيت كل الطـواغيت باللسـان والسـنان، لإخــراج العبـاد من عبـادة العبـاد إلى عبـادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعــوة إلى طلب العلم الشــرعي من معينه الصـافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبـان الـذين أفسـدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجــرمين على اختلاف مللهم ونحلهم، {قل هــذه ســبيلي أدعو إلى الله على بصـــيرة أنا ومن اتبعـــني وســـبحان الله وما أنا من المشركين}.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهـاد في سـبيل اللـه، والسـعي في قتـال الطـواغيت وأنصـارهم، واليهـود وأحلافهم، لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعـوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.